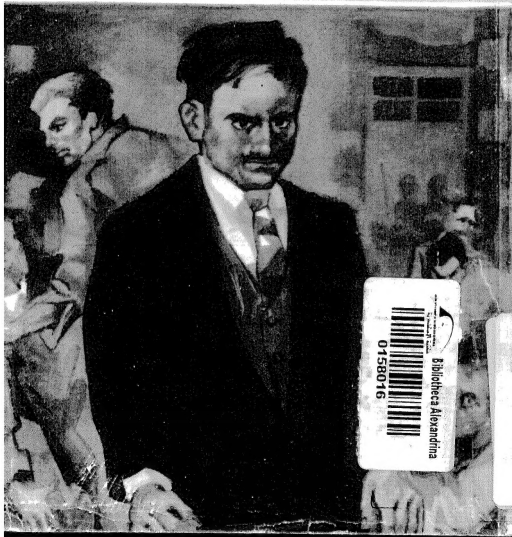


روايات (الهلال

فتحي عنانم

حكاية تو



اهداءات ١٩٩٩

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

### ● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولار بالبريد الجوى .  
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا او بحواله بريديه غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .  
وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارئ فى مصر

سوريا ١٨٠٠ ق . ي . س - لبنان ٣٥٠ ليرة - الاردن ٥٠٠ فلس - الكويت ٤٠٠ فلس - العراق ١٦٠٠ فلس - السعودية ٧ ريال - السودان ٢٥٠ ق . سودانيا - البحرين ١٢٠٠ فلس - الدوحة ٨ ريال - دبي ٨ دراهم - ابو ظبى ٨ دراهم - مسقط ٧٥٠ بيسه - تونس ١٦٠٠ مليم - المغرب ١٥٠٠ فرنك - غزة والضفة ٧٥ سنتا - داكار ١٠٠٠ فرنك - اليمن الشمالية ١٣ ريالا - عدن ١٤٤ سنتا - الصومال ١٣٠ بنى - لاجوس ١٢٠ بنى -

تصدر عن مؤسسة  
دار الهلال

العدد ٤٦٨ ديسمبر ١٩٨٧  
ربيع الثمانى ١٤٠٨ هـ  
No . 468 DEC . 1987

رئيس مجلس الإدارة  
مكرم محمد أحمد  
رئيس التحرير  
مصطفى نبيل  
سكرتير التحرير  
محمود قاسم

فى حالة الرغبة فى الحصول على نسخ من روايات الهلال

اتصل باللكس : 92703 HILAL . U . N

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة  
تليفون : ٢٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط



# روايات الله

---

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف بريشة الفنانة  
سميحة حسنين

# حکایتی

نقص



بمقام:

فتحی عنانم



دارالهدای



## الفصل الأول

لا أدري كيف بدأ اهتمامي به ، ولكنني عندما أفكر في الأمر أكاد أجزم بأنني أنا الذي سميت إليه ، رغم أنني نصحت نفسي بالعذر منه ، فقد توهمت أنه قد يكون نصابا ، أو جاسوسا جاء ليتجسس علينا ، أو لعله أحد رجال المخابرات أو المباحث دخل النادي ليتبع أخبار الاعضاء .. ومن بينهم كثيرون ، كانت لهم يوما ما علاقات بالسلطة ، واشتركوا في صراعات قديمة حولها .. ولكن رغم كل هذه الظنون ، وربما بسببها ، دفعتنى غريزتي الى الاقتراب منه ، فليست الفراشة وحدها هي التي تحوم حول النار التي تحرقها .. أنك تجد نفسك مندفعاً نحو هذا الذي تحذر منه أو تخشاه بقوى مجهولة أكبر وأقوى من أية مقاومة يجندها العقل .

لن أذكر اسمه الحقيقي ، ولن أجهد نفسي في البحث عن اسم مستعار له ، وهو نفسه استطاع ببساطة تامة أن يجعل الجميع ينادونه باسم من حرفين ومقطع واحد ، هو « تو » بضم التاء والواو .. « أهلا تو » ، « تعال يا تو » ، « كنت فين يا تو » .. وقد يستنتج البعض من ذلك أن اسمه الحقيقي « توفيق » أو « توكل » أو « توني » الخ .. ولكنه استنتاج غير مضمون ولا معنى له . كذلك لن أذكر اسم النادي الخاص ، يكفي أن نعرف عنه حقيقتين ، الأولى أنه في الاسكندرية ، والثانية أن أبرز نشاط لاهضاء هذا النادي هو لعب البريدج ، وهم فخورون بالعبة ، ويقولون لك في زهو وكبرياء أن من بينهم خرج أبطال عالميون في البريدج .. وعندما انضمت الى ذلك النادي منذ سنوات قليلة حاولت أن أقنعهم بمزايا الشطرنج « لعبتي المفضلة » ولكنهم لم يقتنعوا بما أقول . وكان « تو » أحد الذين قبلوا في البداية أن يلعبوا معي الشطرنج ، ومازلت أذكر المناسبة جيدا فقد كانت إحدى محاولاتي غير الحذرة للاقتراب منه . فانهزت فرصة وجودنا مبكرين في النادي وحدثته عن الشطرنج ، فاستمع الى ، ثم لمعت عيناه فجأة وقال :

- أريد أن ألعب معك .

فسألته متحمدا :

- أتجيد اللعب .

أجاب :

- لا أدري .. ولكنى أستطيع أن أجيدها إذا أردت فى وقت قصير جدا ..

فضحكت قائلا :

- أشك فى ذلك .. الا اذا كانت لديك مواهب نادرة .

فقال فى لهجة حاسمة ، تخلو رقم ذلك من الوقاحة المتوقعة فى كلمات التفاخر والزهو بالنفس :

- أنا فعلا لى مواهب كثيرة .

وجلسنا تلعب الشطرنج ، واعترف انه كان موهوبا حقا .. لا لانه غلبنى ، ولكن لانه أدرك بسرعة - وهذا شىء نادر بين من اعرفهم فى جيلنا من الرجال - انه يحتاج الى بذل جهد غير عادى ليحيد اللعبة ، واتخذ قراره فى الحال ، رافضا أن يسقط فى هوة العناد كما يفعل فى العادة من يهزمون فى أية لعبة :

- لا .. هذه لعبة صعبة فعلا .. والطريقة التى تلعب بها تبين ذلك .. أنا لن ألعبها الا اذا كانت هى الشىء الوحيد المتبقى لى .  
قلت متحمدا :

- منذ نصف ساعة فقط .. كنت تتحدث عن مواهبك .

أجاب بسرعة :

- فعلا أستطيع أن أجيد الشطرنج . ولكن ليس هذا هو ما أريده الان .

ثم أضاف باسم :

- ان الذى جذب انتباهى الى الشطرنج .. هو حكاية « كشمات » .  
لأشك أنى أكون مسرورا عندما أقول لخصمى « كشمات » .

كانت عيناه تضحكان وهو يسألنى ما اذا كان هذا هو رأى أيضا ، وخطر لى فى تلك اللحظة أن أسأل عما اذا كان له خصوم يكرههم الى هذا الحد ، بحيث يريد أن يقتلهم ، أو يتمنى موتهم ، ولكنى لم أجروا على سؤاله ، فقد شعرت أن ما بينى وبينه لا يسمح لى بأن أتطرق معه فى الحديث عن أسرار حياته ، واكتفيت بأن قلت لنفسى ان « تو »



بفرح موت الخصم ، وحمدت الله انى لست ذلك الخصم الذى يريد له الموت .

ووجدتنى اقول له :

— لعلك لا تحتاج الى رقعة شطرنج لتقول كش مات .

وهنا تغير وجهه ، واختفت الابتسامة تماما ، ورشقنى بنظرة طويلة ، قبل أن ينهض فجأة ، ليلحق ببعض الشبان ليلعب معهم البريدج .

كان وجود الشبان بهذه الكثرة فى نادينا ، وفى صالة البريدج بالذات ، ظاهرة جديدة علينا ، تضايق الاعضاء المسنين والمحالين على المعاش ، وبينهم مرضى القلب والذبحة الصدرية ، الذين لا يستطيعون ممارسة أى شئ آخر فى الحياة ، غير لعب البريدج ساعتين فى اليوم ، والانغماس فى مفامرة المكسب والخسارة ، والفرح برؤية الخصم وهو يضع يده فى جيبه ويخرج محفظته ويفتحها بأصابع مرتعشة من الفيظ والانفعال ليخرج منها خمسين قرشا أو جنبها يدفعها للمنتصر . وبالإضافة الى هذه المفامرة الصغيرة كانوا يتمتعون فيما بينهم بتبادل الشتائم والتشنيعات بنفس الاسلوب الذى كانوا يتبادلون به مثل هذه الأشياء منذ أربعين عاما أو أكثر عندما كانوا طلبة فى الجامعة أو الثانوى ، وكان وجود السيدات المتقدمات فى السن لا يخرجهم ، وإن كان يخفف بعض الشئ من الكلمات المتدلة أو الجارحة ، أنها متعتهم الوحيدة ، أو حريتهم الوحيدة المتبقية بعد الشوط المنهك الطويل الذى قطعوه فى رحلة الحياة ، وكان أبرزهم فى سلاطة اللسان لواء شرطة متقاعد ، كان يتلفت حوله ثم يهتف بفرح « النسوان موش موجودين ياولاد » ثم يطلق سيلان الكلمات البديئة ، يكررها فى تلذذ ونهم . ويردد الكلمات والتأوهات الجنسية فى تكرار منغم نشوان كأنه مجذوب فى حلقة ذكر . وكان بين الحاضرين من الكهول من يخجل أو يفزع ، ولكن متعتهم بما يسمعون كانت دائما أقوى من الخجل أو الفزع . وتسمع أكثر من واحد يقول « اللواء زهدى بك مصيبة ولكن دمه خفيف » .. ولكن الشبان — الاولاد الحقيقيين — ظهروا وتكاثروا وبدأ اللاعبون بهتمون لغير سبب مفهوم بلعب البريدج . وفرضوا بوجودهم غير المرغوب فيه نوعا من الوقار على الكهول اذ كيف يتبادل الكبار الشتائم ويتلذذون بالإلفاظ الفاضحة ، أمام اولادهم ، أو اولاد اشقائهم .. وحاول بعض

اعضاء النادي استصدار لائحة جديدة تمنع « الأولاد » من دخول صالة البريد . وجلسوا يتحدثون عن السن المناسبة لدخول الصالة .. فوق الثامنة عشرة .. لا .. فوق الواحد والعشرين . حتى صاح فيهم أحدهم منبها الى أن هؤلاء الذين تقولون عنهم أولاد ، بينهم متزوجون ، أعمارهم بلغت الثلاثين ، فصمتوا واجمين حتى صاح « رءوف علي » أحد مديري البنوك القدامى ، وقد أصيب بالذبحة مرتين :

— ولماذا لا يلعبون التنس أو الباسكت لماذا لا يتركوننا نلعب بالراحة والهدوء .. الواحد منا عندما كان فى مثل شبابهم ، كان لا يطيق أن يضيع وقته فى صالة بريدج .. هذا حرام .

وقد تأثر بهذا الكلام « شكرى منصور » وهو سفير سابق ، متمزمت شديد الوقار فى مظهره الخارجى ، ولكنه ينقلب الى النقيض عندما يخلو المكان لاصدقائه الكهول وحدهم .. فيستمع الى تاوهات اللواء زهدى فى نشوة ، ويصيح بملء فمه « أنا أحب الهلس » .. والذي حدث هو أن السفير شكرى ذهب الى مائدة بريدج يجلس اليها ابنه « يسرى » مع بعض اصحابه ، وألقى عليهم محاضرة فى خطأ وجودهم فى هذا المكان ، ونظر يسرى ، وهو مهندس تخرج حديثا الى والده ، وقال فى هدوء قاتل :

— يا بابا لا تعظنا .. اذهب واجلس مع أصحابك .

فانفجر الاب صارخا :

— أنا .. أو انت فى هذا النادي .

وهنا حاول أحد اصحاب يسرى أن ينهض قائلا ليسرى فى ارتباك .

— لا داعى يا يسرى .

ولكنه لم يكمل ، اذ خاطبه يسرى بلهجة قاطعة :

— اجلس أنت .. ولا تتدخل بينى وبين هذا الرجل .

واستدار شكرى منصور ، ولم يعد الى جلسة أصحابه ، بل اتجه مباشرة الى الباب ، وخرج من النادي ولم يعد اليه حتى الآن .. وعقد جلسة بريدج خاصة فى بيته ، تردد عليها البعض لفترة قصيرة ، ثم سلموا ، وعادوا الى النادي فزعين ، وقد شاع بينهم خوف مبالغ فيه من هؤلاء الشبان ، أولادهم أو أحفادهم ، وكانوا يتهايمسون فيما بينهم من خطورة الأولاد وضراوتهم . حتى سرت بينهم أشاعة لا أدرى

من هو مصدرها ، تفسر انقطاع « شكري منصور » عن النادي بحكاية غريبة تقول ان الاب احتك بابنه في البيت مرة اخرى ، فتجرا الولد وضرب اياه ضربا مبرحا ، اضطره الى الاستنجاد بشرطة النجدة . وان « يسرى » قد هدد اياه بأنه سوف يضربه مرة اخرى لو رآه يذهب الى النادي او يتردد على صالة البريدج . والرواية كلها غير معقولة ، ولكن الستهم تناقلتها ، لتصور ما في نفوسهم من خوف ولا أقول كراهية للشباب حتى أنهم أصبحوا يخشون ان يحرمهم الاولاد من دخول النادي .

ولكن - تو - مقبول من الجميع ، في كلا المسكرين ، الكحول والشباب ، رغم انه شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين . وكانت اول مرة رايت فيها « تو » في صالة « البريدج » منذ حوالي العام ، واول ما جذب انتباهي الى وجوده هو صوته ، فقد ارتفع فجأة صوت سريع عصبي تتزاحم فيه الكلمات بطريقة غير عادية ، وكنت اجلس الى جوار رءوف على يحدثنى عن ذكرياته في السودان عندما قطع سرده ، ملتفتا الى مصدر الصوت وزعق :

- خفض صوتك يا « تو » لست وحدك هنا .

فالتفت اليه « تو » باسماء وقال معتذرا :

- حاضر يا رءوف بك .. لا تفضب .. لكن ..

وانطلق « تو » يشرح من مكانه البعيد كيف ان زميله اخطأ في اللعب .. فقاطعه رءوف يائسا :

- اسكت يا اخي .. وجعت دماغى .

وسكت « تو » بعد ان قال وهو يتسم :

- حاضر .

تأملت « تو » في دهشة : شاب متوسط القامة ، ممتلىء قليلا ، رأسه ضخم ، يرتدي القميص اللون والبنطلون الشارلستون ، في شكله بعض البهذلة ، وشعره الاسود الغزير منكوش فوق رأسه ، شأن أغلب شباب النادي الذين يقلدون مايرونه في الافلام وصور المجلات لشباب العالم في هذه الايام .

قلت لرءوف معلقا :

- الشباب له احكام .

فقال هامسا :

هذه قلة ادب .

قلت :

— ولكن هذا هو الشبان :

قال وهو يقترب منى براسه كانه يهمس بسر :

— هذا الولد الصايغ لا عمل له هنا .

وأضاف الى معلوماتى ماشد انتباهى الى « تو » . قال لى انه ليس عضوا فى النادي ، وانه يدعى انه طالب فى السنة النهائية بكلية الزراعة ، وانه رغم ذلك يأتى الى النادي كل يوم فى الصباح حتى المساء ولا عمل له الا ان يلعب مع اولاد الاعضاء ويكسب منهم . فسألته :

— أهو من الشبان الذين يقولون عنهم انهم عاطلون بالوراثة .

قال :

— بالعكس .. انه فقير غلبان .

فسألته فى دهشة :

— وكيف دخل هنا .

قال لى مؤكدا :

— سوف نجتمع ونقرر طرده ومنعه نهائيا من دخول النادي .

قلت :

— وما الذى يمنع من طرده الان ..

همس :

— يبدو انه على صلة باللواء زهدى ، ويقال انه قريب له .. على أية حال سوف نتفاهم معه قبل أن نتخذ قرارنا . وحدثت انى تركت الاسكندرية لبعض الوقت .. ونسيت كل شيء عن « تو » حتى عدت الى النادي بعد أكثر من شهر ، لافاجأ بوجود «تو» ، وقال لى رءوف بلهجة متفلسفة :

— لقد تصرفنا كالمجانين .. وقررنا تعيين « تو » فى النادي ، لقد كانت حكايته هى شغلنا الشاغل أثناء غيابك ، كانت فرصة لممارسة سلطاتنا التى اقتقدناها فى التعيين والرفق ، فقررنا أولا طرده والتنبية على سعد المراقب بمنعه من الدخول حتى لو كان مع أحد اولاد الاعضاء .. وبعد أن اتخذنا القرار ، ارتفع أكثر من صوت يقول : حرام .. يجب أن نساعد .. أو نبحت له عن وظيفة .. وطبعاً كان وراء هذه الأصوات اللواء زهدى ، فقررنا تعيينه معاوناً لصالة البريد ، يشرف على نظافتها وعلى أوراق اللعب وحجز

- الموائد وكل هذه الامور .  
سألته :
- ومتى حدث هذا .  
قال :
- منذ يومين فقط .  
ثم أضاف ساخرا :
- المهم اننا مارسنا سلطتنا القديمة وشعرنا باننا قادرون على  
التعيين والرفق .  
وهنا خطر لى ذلك الخاطر المفزع فهمست :
- ولكن الامر مريب .  
فنظر الى بعينين فيهما دهاء الكهول وسألنى :
- ما الذى يريك .  
همست :
- ان تعيينه .. ليس مفهوما .. كذلك مجيئه الى النادى اول  
الامر .. لقد خطر لى واثت تحدثنى الان .. إنه قد يكون فى الامر  
شيء .  
فضاقت عيناه وقال باسما :
- طبعاً .. لقد خطر لنا جميعا نفس الشيء ..  
قلت :
- قد يكون جاسوسا علينا .  
فقاطعنى بلهجة تأكيد :
- أنا والحق أنه من المخابرات .  
فسألته مترددا :
- كيف تجزم بشيء كهذا .  
قال وهو يتلفت حوله :
- لست فى حاجة الى ان اجزم .. ان هذا هو شعورنا جميعا ..  
فبمجرد أن طرح اللواء زهدى فكرة تعيينه .. تهامسنا بأنه مطلوب  
تعيينه لهذا الغرض .  
قلت :
- ولكن زهدى على المعاش .  
فأجاب وعلى شفثيه ابتسامة مأكرة :
- أمثال هؤلاء لا يتركون الخدمة حتى الموت .. لابد أن له دورا

فى عمليات المخابرات أو المباحث .. هذا شأنهم جميعاً .  
وعدت انظر فى اتجاه « تو » وفى صدرى مشاعر مختلفة من  
الفضول والحذر ، وأنا أحاول أن أجد فى مظهره ما ينبئنى عن حقيقة  
مخبره ، وأن كنت أعلم أن مثل هذه المحاولة ميثوس منها ، وجعلت  
افكر فى هذا الوضع الشاذ الذى يتعرض اليه « تو » ويقبله ، فهأهو  
يبدو ، أو يتظاهر ، وكأنه أحد الأعضاء ، وهأهو يختلط بالشبان  
الذين هم من طبقة اجتماعية أخرى غير طبقتة ، ومع ذلك فالجميع  
يعرفون حقيقة وضعه .. وهو أنه ليس منهم .. وأنه ليس عضواً ،  
بل موظفاً وأجيراً عندهم .. هل مثل هذا الوضع الغريب يصلح لرجل  
مخابرات ؟ لا أظن . ومع ذلك فالأمر قير مفهوم تماماً ، إذ لماذا يقبل  
« تو » هذا الوضع ، وهل هو مضطر اليه ، أو هو يتعمد أن يكون  
كذلك لغرض فى نفسه ، وخطر لى أنى ربما أكون قد ظلمته بهذه  
الهواجس ، فقد يكون واحداً من ذلك الشبان الغريب الذى لانستطيع  
أن نفهمه نحن أبناء الأجيال الماضية ، لعله واحد من تلك الطيور  
الغريبة التى تشق طريقها فى الحياة بوسائلها الخاصة المستكرة التى  
لا تخطر على بال أمثالنا .. أكون الحياة قد دفعت به الى هذا المكان  
كمحطة يستريح فيها بعض الوقت ، قبل أن يطير الى مكان آخر  
يحط فيه . حقاً أن هذا النادى اشبه بالمحطة ، بعض من فيه كهولاً  
ينتظرون القطار المسافر الى الحياة الأخرى ، وبعض من فيه شبان  
يتسكع فى انتظار قطار مسافر الى فرص أوسع فى الحياة . على  
آية حال ، قررت بينى وبين نفسى أن أحذر من تو ، وأن أتعامل معه  
بحرص اذا شأمت الظروف أن نلتقى ولا بد أن هذه الظروف سوف  
تتأى يوماً ما ، مادام كلانا يواظب على التردد على هذا النادى . ورغم  
حذرى وهواجسى وجدتنى أتبعه بعينى ، واكتشفت أنى أراقب كل  
صلة بينه وبين اللواء زهدى ، ولا حظت أن زهدى لا يتخرج فى أخله  
حريته وممارسة هوايته فى تردد التأوهات والكلمات البديئة أمام  
« تو » رغم أنه لا يفعل ذلك أمام الشبان الآخرين .. فزهدى لا يشعر  
بحرج أمام « تو » ويعامله بكل تأكيد من مركز سلطة . وهو ما يعنى  
أن هناك علاقة ما بينهما .

وذات مرة ، وجدتنى ابتسم فى وجه « تو » الذى أقبل على  
بحيىي مردداً اسمى كأنه يعرفنى منذ زمن بعيد ، وسألنى عن رأى  
فى نظافة المكان ، وحدثنى عن اقتراحه بتغيير نظام موائد اللعب ،

وفقدت كل حذى فسألته :  
— هل أنت طالب فى كلية الزراعة .  
فأجاب على الفور :

— نعم .  
ثم أضاف بلهجة جملتنى أجزم بأنه لا صلة له بالزراعة أو كلية  
الزراعة ، أن التعليم الجامعى لا فائدة منه .. وأنه لا يحبه ، ثم سألنى  
عما إذا كنت أعرف أحد مديرى فندق فلسطين ، فأجبته بالنفى ،  
فقال أنه ذاهب الى هناك غدا ليلحق بالعمل هناك .. ثم عاد وصحح  
ماقاله ، بأنه ذاهب فى امتحان للوظيفة ، وأن له خلافاً نفوذ قد  
أوصى عليه ، ولم يذكر لى اسم خاله ، وانطلق يتحدث بسرعة مضاعفة  
وبلهجة عليها الانفعال عن مواهبه . وأجاده لثلاث لغات هى الإنجليزية  
والفرنسية والإيطالية ، وأنه يستطيع أن يعمل فى العلاقات العامة فى  
الفنادق ..

وقاطعته فى هدوء ، مخفياً تشكى فى صدق كلامه :  
— أرجو أن تفلح .  
فقال فى حدة غير مفهومة وقد تحولت كلماته الى ما يشبه  
اللعممة :

— كل شىء اتجه اليه .. كل عمل أرغب فيه تقف دونه العقبات  
.. ولكنى على أى حال مصمم على العمل هناك .. وإذا لم أنجح فى  
فلسطين فسأسافر الى القاهرة وأعمل فى شيراتون أو الهيلتون ..  
قلت وأنا أحرص بالكلام فى العموميات :

— أنا واثق أن أصرارك هذا سوف يجعلك تحقق كل ما تريد ..  
قال فى حماس اقرب الى أنفعال لا يستطيع السيطرة عليه :  
— أن الصعاب إن تمنعنى .. أنا عندى مواهب .. ولابد أن أشق  
طريقى وأصل .

خيل الى فى تلك اللحظة ، أنه أشبه بممثل ردىء ، فقد راودنى  
احساس قمامض ولكنه قوى ، بأنه يريد أن يخدعنى وأنه قير صادق  
بالرة فيما يقول ، وأن هناك ما يخفيه عنى .

ومع ذلك ، لم يبد منه ما يدل على أنه يريد أن يخدعنى أنا بالذات  
فأنا الذى كنت أندفع نحوه ، بينما هو مشغول عنى ، حتى شجعت  
نفسى على الاعتقاد بأنه يعتمد الابتعاد عنى لسبب ما أجله تماماً ..  
ولاشك أن هذا أبعده كان كفيلاً بأن يشير الطمأنينة فى نفسى ، فلافضل

- منطقيا - ان اشعر بانى لست محل اهتمام هذا النصاب ، او الجاسوس او رجل المخابرات ، او ايا كان هو .. ولكن من قال ان النفس البشرية ترضى بمثل هذه الطمانينة .. ان نفوسنا تقلق من اى اعتماد عنها ، حتى ولو كان هذا الذى يعتمد مصدرا للخطر .  
ولعل هذا هو الذى دفعنى الى ان اتهور ذات مساء ، وبغير سابق تدبير ، فانتهاز فرصة خروجى مع اللواء زهدى من النادى ، وقبل ان يتركنى ليدخل سيارته ، اذا بالسؤال يخرج من فمى ليفاجئنى قبل ان يفاجئ زهدى :

- ماهى حكاية « تو » يا زهدى بك .  
ونظر اللواء زهدى الى نظرة طويلة غريبة . كانت عيناه تفحصاننى فى دهشة قبل ان يسألنى بصوت يحاول ان يكتم انفعاله :

- لماذا تسألنى هذا السؤال .

قلت مندفعاً وقد فات اوان التراجع :

- انه يبدو لى مريباً .

فصاح اللواء زهدى محذراً وبلهجة خيل الى ان فيها شعوراً

بالالام .

- لا تجلب المتاعب بدون مبرر .

قلت :

- المتاعب لمن ؟

قلتلى فى حدة ، وقد ظننت انى قد ظفرت أخيراً بشجاعتى ، وانى على وشك ان اصل الى ما أريد من طمانينة حقيقية ، أعنى طمانينة الفهم . وبدأ لى ان زهدى يوشك ان يتكلم .. كان ينظر الى وكأنه ينظر الى مجهول .

ولكن يبدو انى اقدمت على تصرف غبى فى هذه اللحظة ، فقبيل ان ينطلق زهدى بكلمة ، تعجلته قائلاً :

- فى الحقيقة انا لا أفهم شيئاً .

وكان ماقلت قد جعل زهدى يقيق ويتعقظ فاذا بالحيوية تدب فيه فجأة ، ويضحك ساخراً ويقول :

- هل اخذت كلامى على محمل الجد .

قلت فى اصرار لا يخلو من عيظ :

- لن تراجع الان .. لقد حدثتنى عن المتاعب التى يجلبها سؤالى .



فثبت نظراته في عيني ، وقال وهو يضحك ضحكة جافة :  
 - واى متاعب يستطيع ان يجلبها هذا الولد .. انه لاشيء على  
 الإطلاق .  
 ثم اضاف بلهجة يصطنع بها اهتماما كاذبا :  
 - هل ضايقتك فى شيء .  
 قلت بسرعة وقد عاودنى شعورى بالحدور :  
 - أبدا .. أبدا ..  
 فعاد يده يصافحني .. متمتما بكلمات اعتذار مقتضبة عن  
 اضطراره للانصراف فى الحال .. وركب سيارته وانطلق بها .

## الفصل الثانى

استبد بى الفضول ، فدفعنى الى محاولة الاقتراب من مجموعة الشبان الذين يلعبون البريدج مع تو . ولم أجد صعوبة فى ذلك ، فأغلبهم قد قرأ لى رواية ، أو سمع عني ، وقد سألنى أحدهم سؤالاً أو سؤالين عن الادب أو اخبار الصحافة . ولكنى ما اكاد أفتح فمى لأجيب ، حتى اشعر بأن صاحب السؤال غير مهتم بما أقول فهو مشغول تماماً بأشياء أخرى غير التى أحدثه عنها ، وسرعان ما اكتشفت أن الصلة الحقيقية التى يمكننى أن أعقدها مع هؤلاء الشبان ، لن تعتمد على حديث الفن والثقافة ، بل تعتمد أساساً على سسيارمى الإيطالية السريعة ، من طراز « الفاروميو » . فكنت اتعمد الانطلاق بها مسرعاً لاجذب انتباههم الى سرعتها غير العادية وبالتالي اكسب اهتماماً أكبر بى . وهذا هو ما حدث فعلاً . فذات ليلة ، كانوا قد اتفقوا على قضاء السهرة فى بيت صديق لهم لا أعرفه ، وكانوا فى حاجة الى سيارة ثانية لتنقلهم الى بيت ذلك الصديق فى « رشدى » وبينما هم يتناقشون فى حدة .. حول من يركب سيارة « لطفى » وهو محام تحت التمرين يعمل فى مكتب ابيه المحامى المشهور بالاسكندرية ، ومن منهم يركب التاكسى ، اذا بى انتهز الفرصة ، وأعلن لهم أنى على استعداد لان أقدم لهم خدماتى . ورحبوا بهذا العرض ، وتحمسوا لركوب الالفاروميو ماعدا « تو » الذى ظل ساكناً ، بل كان اقرب الى الوجوم ، أو هكذا خيل الى ، وعندما هبطنا الى الشارع ، ذهب « تو » من تلقاء نفسه الى سسيارة « لطفى » الفولكس ، وظل واقفا بجوارها ، كأنه امر مسلم به أنه سركب تلك السيارة ، وانه لايعنيه فى قليل أو كثير أن يركب معى . وراقبته من خلف زجاج سيارتى وهو ينحشر بين اثنين فى المقعد الخلفى للفولكس ، ولا يحاول أن يلتفت ولو مرة واحدة ناحيتنا .

وما كدنا نتحرك ، حتى اندفعت « الفولكس » بسرعة غير عادية ، وبذلك اعلن لطفى أنه يتحدى سرعة عربتى . ولو كان ذلك قد حدث فى أى ظرف آخر ، لكنت ابتسمت ، وقلت لنفسى ، هذا طيش عيال ولكن الظرف الان مختلف ، فكل ما بينى وبين هؤلاء الشبان من صلة ،

لا يعتمد على احترام السن ، أو ما يمكن أن أسميه بمكانتي الادبية الى آخر هذا الكلام الذى لا يعنيه فى شيء . ان المرور الوحيد اوجود صلة معقولة بينى وبينهم ، هى فى قدرتي على الانطلاق بماكينة الالفا روميو بطريقة باهرة تجعلهم يحترموننى بالقدر الكافى . انها لونة أصابتنى وجعلتنى أفكر على هذا النحو ، ولاشك أن بعضاً من طيش الهيال قد أصابنى ، بعد أن سعيت الى التعامل معهم ، والتصرف عليهم ، وعلى أية حال فقد أندفعت فى سباق جنونى فى طريق الحرية ، والفولكس اللعينة ، تستفيد من حجمها الصغير ، وقدرتها على التسلل والافلات من محاصرة السيارات والاثوبيسات وعربات النقل بينما اعتمدت على وقفات اشارات المرور ، وقدرتى على الاندفاع بسرعة مائة كيلو بالحركة الاولى للسيارة ، وكنا على وشك أن نسبق الفولكس عند مستشفى المواساة ، عندما سمعهم يصيحون فى انفعال :

- تو يضرب لطفى كانه جوكى .

فهتفت فى دهشة :

- تو . .

قالوا :

- نعم . . انه سيموت من الفيظ لو سبقناهم .

ولاشك أن هذه المعلومات اربكتنى ، فقد كادت حياتنا ان تنتهى فى تلك اللحظة وقد ظهرت أمامى فجأة عربة نقل واقفة بغير أنوار . وما كدت اتفادها ، حتى سمعت صيحاتهم بأنهم سبقونا ، وكانت يداى ترتعشان ، ثم امتدت الرعشة الى قدمى التى تضسفت على البنزين ، وأيقنت أن أعصابى قد أرهقت ، ورغم ذلك استولى على عناد أحقق ، فلم أخفف من ضغط البنزين ، واندفعت الالفا بسرعة مخيفة ، وأنا لا أدري ما إذا كنت أسيطر على اندفاعها أم انها تجري بقوة مجهولة ، وسبقنا الفولكس عند إشارة المرور فى الأبراهيمية ، ولابد أنى خزقت إشارة المرور ، ولابد أنى نجوت أكثر من مرة من موت محقق ، ولكن كل هذا كان يحدث وكأنه يحدث ، فلم أعد أمي مايدور بجوئى ، ولا أسمع الصيحات والتداعيات ، كانت لحظات بلا منطلق ، لا يحكمها حرس أو حذر ، ولا يحكمها قانون خارجى من اشارات حمراء وخضراء ، ورجال مرور ، وسيارات وأناس تعبر الطريق . الشيء الوحيد الحقيقى ، كان ذلك الحريق الهائل داخل موتور السيارة ، التى يندفع بها ، وذلك النبض الذى يرتجف به

كل عصب فى جسدى ، لاشك فى أن كل ذرة فى جسمى كانت فى قمة نشاطها ، وتوشك أن تنفجر كما تنفجر معها السيارة فى أية لحظة ولكن شيئاً لم ينفجر ، وما كنت لحظتها أستطيع أن أدرك ، وقد فقدت عقلى تماماً ، أن هناك شيئاً يوشك أن ينفجر ، وكل ما أذكره بعد ذلك هو أن السيارة وقفت أمام فيلا فى شارع جانبى ضيق متفرع من طريق الحرية عند رشدى . أذكر الشارع المظلم ، وصيحاتهم التى لا أسمع ولا أفهم ماتعنيه ، ثم أذكر وجوههم وهى تخاطبني ، وهى تحمل وهجا فى العيون . ثم أذكر كيف بدأت استرد ذاكرتى ، وأفكر فى أن الفولكس سوف تأتى الآن فى أية لحظة . وأذكر أن كل ما كان يهمنى عندئذ ، هو أن أرى « تو » يهبط من « الفولكس » وأن أنظر فى عينيه ، وأنى سأتمتع فى لقاء النظرات بفرحة فوز ، وما كان يهمنى أن أراجع نفسى وأسألها عن قيمة هذا الفوز ، وهل هو فوز رخيص ، أم كبير . ولكن تشاء الظروف أن تلقننى درساً ، تعلمته كاملاً فيما بعد ، وكانت بداية هذا الدرس فى عدم وصول الفولكس وما أعقب ذلك من أحداث ، أن أعجبها ، ويكفى أن أسجل الآن ، أنى لم أحصل على ذلك اللقاء الذى توقعته مع تو ، ولم أحصل على فرحة الفوز . كانت قد مضت أكثر من عشر دقائق ، دون أن تظهر السيارة التى سبقناها وبدأ لنا شبح حادث وقع لهم ، ورغم أن هذا الاحتمال كان شبه مؤكد مع هذا التأخير ، إلا أن من كانوا معى لم يكتروا بالأمر ، أو على الأقل لم يقلقوا بنفس درجة قلقى ، وكان أهم ما يشغلهم اقتناعى بالصعود معهم الى الفيلا التى لا أعرف أصحابها ، وأذعنت عندما قالوا لى : « ابق معنا حتى نسمع شيئاً عن أخبارهم فقد نحتاج الى عربتك مرة أخرى » .

فتحت لنا الباب فتاة مريحة لا يزيد عمرها على الثامنة عشرة ، وجبها صبور بلا ماكياج ، وشعرها بنى منسدل على كتفها كأسلاك من خام النحاس . ولها عينان سوداوان واسعتان فيهما بريق ينفجر بالشقاوة والعفوة ، ترتدى بلوزة صفراء ، وبظلونا رمادياً فضفاضاً أشبه بسرابيل جاريات هارون الرشيد ، أو هكذا قلت لنفسى ، مع أنى لا أعرف على وجه الدقة ماذا كانت ترتدى جاريات الرشيد . وبعد برهة ، تبينت أن اهتمامى بهذه الفتاة لا يوجد ما يبرره ، فليس هناك ما يجزم بأنها من أصحاب البيت ، كنا دلفنا الى ضالة واسعة ، مزدحمة بالأولاد البنات ، وتضج بالموسيقى ، وصوت توم جونز ، ولا أحداً قدمنى لاحد ، ولا أحداً يبدى أى نوع من الاهتمام بوجودى ،

فقضيت لحظات حرجة اعالج فيها مشكلة اهتمامى بنفسى ، وكنت اتحرك ببطء شديد ، ولا أدري ما صلة عدم اهتمامهم بى ، بشدة اهتمامى بالآثير انتباههم . فهكذا كانت حالتى النفسية ، ووصلت أخيرا الى ركن احتميت به ، ثم فكرت فى أن أعود واسير بينهم ببطء لأخرج هاربا من المكان . ولكن مثل هذا الخاطر لم يدفعنى الى أى نوع من الحركة ، وسمعتهم يتحدثون عن موسيقى « السوبر ساكس » وخطر لى أن أفعل شيئا ، هو أن أهدي من روعى ، وأن أرقب هذا الجبل من الشيايب ، ولكنى لم أهذا ، وقد اختلطت امامى الوجوه والاصوات ، وتحولوا جميعا الى ما يشبه النقوش الصاخبة الزاهية فى سحابة فارسية ، انك لا تستطيع أن ترى مالا تعرفه ، وغربتى عن هذا الجو كانت تعينى تماما ، بل أقول انها افقدتني القدرة على الابصار ، فلا أستطيع أن اميز بين فتاة وفتاة ، ولا أستطيع أن أمارس هوايتى فى التعرف على الشخصيات كما أفعل بسهولة ويسر وأنا جالس مع أعضاء النادى من الكهول . أو عندما اذهب الى مقهى من مقاهى المنشية أو كامب شيزان . وقد بلغ بى الذهول أنى وجدت فى يدي زجاجة « كوكا » قدمتها لى احدى البنات ، لا أذكر من هى ولا متى أعطتها لى ، فلا بد أن ذلك قد حدث بسرعة وبلا مقدمات ، وبلا كلمات من جانب من قدمتها وبغير انتظار لكلمة شكر من جانبى . كنت أحاول أن أبحث عن تلك التى أعطتني زجاجة الكوكا . كمجرد عمل أشغل به نفسى . عندما ارتفعت صيحة :

— كلهم فى قسم البوليس .

وقبل أن أفهم ما الذى يجرى ، كان أكثر من واحد يجذبني ، لأذهب الى قسم البوليس : انهم هناك .

وفى الطريق ، سمعتهم يرددون — لدهشتي — أن هذه ليست المرة الاولى وقال واحد منهم سائرا :

— تو له مزاج خاص فى دخول اقسام البوليس .  
ثم أضاف متفلسفا :

— لا بد انه الآن فى قمة النشوة والسعادة .

وخفق قلبى وأنا اسمع هذه المعلومات القريبة ، وسألت محاولا كتم الفعالي :

— وهل هذا مزاج ؟

وانطلقوا يروون لى عن حكايات « تو » ذات مرة كان يسير فى الشارع قبيل الفجر بعد أن تركهم فى نهاية السهرة ، وحدث أن

اعترضه مخبر واستراب فيه . وكان ذلك في وقت شاع فيه ان  
بعض الجواسيس الاسرائيليين لهم نشاط خاص في الاسكندرية  
وطلب المخبر من « تو » بطاقة تحقيق شخصيته . فامتنع ، فلما أصر  
المخبر انهاء عليه « تو » شتما ، انتهى بالتشابك بالابدى ، ورغم تأخر  
الوقت تجمع بعض المارة ، واستطاعوا التدخل وفض الشجار  
وأخرج « تو » بطاقته وعرضها على الناس ، راقضا أن يقدمها للمخبر  
بدعوى أنه يشك في أنه مخبر حقيقى . وعندئذ أخرج المخبر بطاقته  
وأثبت للجميع أنه فعلا من قوة الشرطة ، ولكن « تو » تشكك في  
صحة البطاقة ، وفجأة قال « تو » للمخبر :

— هيا بنا الى القسم .

وهناك أمام الضابط النوبتجى ، تصرف « تو » بنذالة غير متوقعة  
فقد اتهم المخبر بأنه اعترض طريقه وطالبه بنقود . « ودليلي يا حضرة  
الضابط انى لم ارتكب شيئا ، وهاهى بطاقتى معى ، ولا يستطيع  
هذا المخبر أن يتهمنى بشيء . وأنا الذى طلبت منه الحضور الى  
القسم بعد أن هجم على وطلب منى عشرة صاغ . احمينى يا حضرة  
الضابط من هؤلاء المخبرين المفلسين الذين تحولوا الى بلطجية » .  
وهنا سألت معترضا :

— ولكن كيف عرّتم بهذه القصة ؟

قالوا ضاحكين :

— هو الذى رواها لنا .

قلت على الفور :

— ان خياله واسع .

ولكنهم رفضوا هذا التفسير . وشرعوا يعددون لى المناسبات  
آلتى تفوق الحصر والتي تحرش فيها « تو » برجال الشرطة . أحيانا  
كان يتحرش بهم فى اندفاع جنونى . عنده ارتكاريا من البوليس ،  
يكفى أن يرى الواحد منهم ليتحول الى ثور هائج تلوح أمامه باللون  
الاحمر .

ورغم اقتناعهم الواضح بما يروونه عن « تو » ألا انى لم أصدق ان  
هذه هى الحقيقة . واعترف انى سمعت لبعض الخواطر الصبيانية  
ان تشغلنى . فقد خطر لى ان « تو » يلعب لعبة غامضة . من نوع  
تلك الالاب التي نراها فى أفلام جيمس بوند ، فمثلا يمكن أن يتخذ  
احتكاكه بالشرطة كوسيلة للاتصال بهم بطريقة غير مكشوفة يتحايل  
بها على آخرين يراقبونه ويتشككون فيه .. وأن حياته سوف تتعرض

للخطر لو أنه اتصل بالشرطة بأسلوب مباشر وعادى . ولكن سرعان ما بدا لى سخف هذا الخاطر ، وأنه لا يفسر لى سلوك « تو » ولا يصل بى الى حقيقة امره . ويبقى رغم ذلك ما أستطيع أن أوكدته لنفسى ، وهو أن فى الأمر سرا . ومع ذلك ماشأنى به ، وما الذى يورطنى فى هذه الامور الصيبانية التى لامعنى لها . أن الاختلاط بهؤلاء الاولاد ليس وراءه الا البهذلة ، سباق جنونى بالسيارات فى الشوارع ، وحفلات راقصة صاخبة ، وأقسام شرطة . أليس الاجدر بمثلئ أن يحتفظ بوقاره ، وأن يعود الى اصحابه فى النادي . يستمع الى . . وهنا توقفت عند مشهد زهدى وهو يصدر تأوهاتة الجنسية . وكنا قد وصلنا الى القسم .

دخلنا حجرة الضابط التوبجى ، وقد جلس الى مكتبه خلف حاجز قصير من الخشب . وقد وقفوا ومعهم « تو » الى الدخائل بينما جلس لطفى المحامى تحت التمرين . وقدمت نفسى الى الضابط ومن حسن حظى أنه عرفنى . وفسرت له سبب حضورى بقولى « ولادنا فى النادي » فابتسم الضابط وقال وهو يتفحصنى :

— لعلك تكتب عنهم فى رواية .

قلت ضاحكا فى ارتباك :

— لو افهمهم .

فقال :

— لا . اظن أنه من الصعب على رجل مثلك أن يفهمهم . .

ثم اشار الى « تو » وقال :

— خاصة هذا الاستاذ .

وفوجئت بمشهد قريب . فقد صرخ « تو » صرخة مدوية ، فى حدة انتحارية — ولا اجد وصفا آخر لها — وقال :

— انا معترف بأنى شتمته . . وسوف أشتمه . . أنا لا يهمنى شيء . .

.. لا انت ، ولا وزير داخلتك .

وأعجبنى الضابط ، فى ذلك الموقف القريب ، فقد احتفظ بهدوئه تماما ، وقال لى هامسا والابتسامة لا تفارق شفثيه :

— أحسن عقاب لامثاله أن تفوت عليه غرضه . . ولكن مادمت

انت هنا ، فأرجو أن تقول لى أنك سوف تهتم بعلاجه .

قلت فى دهشة :

— كيف ؟

قال الضابط :

— انه فى حاجة الى طبيب نفسى .  
وعرفت بسرعة ما الذى جاء بهم الى القسم ، لقد منعتهم اشارة  
حمراء — ربما نفس الاشارة التى اخترقتها — من مواصلة السباق  
وخيل الى « تو » أن رجل المرور يتمدد أن يتلصقا فى اعطاء النور  
الاخضر ، فصرخ بأعلى صوته شاتما رجل المرور ، الذى ترك الاشارة  
وتقدم من الفولكس وقال لمن فيها :  
— موسى عيب عليكم يا افنديه يا متعلمين .  
فاذا « تو » يحاول أن يهجم عليه ، لولا أن منعه زميلاه من حوله ،  
وانتهى الامر بتصميم تو ورجل المرور على الذهاب الى القسم .  
قال الضابط هامسا :  
— هذه حالة هيسترىا واضحة .  
قلت له معتذرا :  
— هذه اول مرة أعرف بها .

وعندما خرجنا من القسم ومعنا « تو » كانت نفسيته قد تبدلت  
تماما . كان فى حالة هدوء تام ، هدوء مابعد العاصفة ، وقد فاجانى  
رغم أن مفاجاته لتتأبىها لم تمد مفاجيات ، باعتذاره للضابط . وكانت  
الدموع تترقق فى عينيه وهو يصتدر ، مما أثار الشفقة فى نفسى ،  
وأثار نوعا من النظرات والبسمات الساخرة عند الآخرين ، وكنت  
قد نسيت تماما نظرة الفوز التى أمدتها لالتقاء بها . أن لقاء نظراتنا  
على نحو انساني فيه فهم متبادل ، وفيه معنى يدركه كلانا ، ما زال  
أمرا بعيد التحقيق . وكما قلت ، لم أكن أعرف فى ذلك الوقت ،  
أن ما حدث ، وما سوف يتلوه من أحداث ، كان بداية لدرس سوف  
أفلمه كاملا ، حول معانى لقاء البشر ، وأهمية ما يدور بينهم من  
سباق وتحديات ، وما يصاحب ذلك من تعرف على القيم والاحكام  
فى مواجهة الحياة والموت . ولكن مهلا ، فسلا داعى للمجلة ، ولا  
للانسياق مع ما يتناهى مع هذه الذكريات من انفعالات . الذى جذب  
انتباهى بعد أن تقدمنا خطوات خارج القسم هو أن « تو » توقفت ومد  
يده وأخرج بطاقته الشخصية وفحصها باهتمام ، وخيل الى انه يمد  
قراءة اسمه ، فقد تحركت شفاهه . وعيناه مثبتتان على البيانات  
المدونة فى البطاقة . وأخيرا ظهرت على وجهه ابتسامة هادئة ، تمتزج  
— هكذا خيل الى — بآلم دفين كأنه يخفى سكيناً مدفوساً فى ضلوعه  
ولا يريد أن يعرف أحد منا بأنه مفلعون بهذا السكين . ووجدتنى أقدم  
منه وأسأله باهتمام ساذج ؟



— هذه بطاقتك الشخصية طبعاً .  
فوجه الى نظرات مستسلمة . تشع حزناً ، وقال وهو يقدمها الى :

— هي بطاقتي .. انظر .  
قالها كأنه يطلب منى أن أتأكد له . وهو طلب لو صح لكان غريباً ولا تفسير له ، فارتبكت ، ومع ذلك مددت يدي الى البطاقة ، كنت لا أستطيع أن أرد يده الممدودة الى ، وامسكت البطاقة ورددت في غير فهم :

— انها بطاقتك .

قال هامساً :

— وفيها اسمي .

وخيل الى أنه قد مضت برهة قبل أن يضيف بنبرة خاصة :

— وفيها اسم أبي وجدى .

قلت :

— أذن فهي بطاقتك .. لقد ظننت أنك تخشى أن يكون الضابط قد أعطاك بطاقة أخرى .

فنظر الى محققاً .. قبل أن يقول بصوت غريب :

— ليته فعل !

نظرت اليه ، كانت عيناه لا ترياني ، واختطف بطاقته من يدي ، وجرى الى السيارة الفولكس يلحق بهم .. وإذا به يصيح :

— هيا تكمل السباق .

هتفت فزماً :

— مستحيل ..

لم أعد قادراً على احتمالهم ، لقد شدوا اعصابي بما فيه الكفاية ، وبلغ بى الإرهاق حداً أصبح فيه من المحتم أن أشرب قدحين من الينسون وأنا داخل فراشي حتى أنام .

ولم أتم ليلتها ، فقد شغلت باجترار ماحداث ، حتى سمعت أذان الفجر يتردد خارج البيت من مؤذنة الجامع المجاور . عندئذ لعنت الارق ، ولعنت الفضول ، وتذكرت ما قاله لى الضابط ، عن هذه الشخصيات . وبدأت أفكر من جديد ، هل هناك احتمال فى أن يأتى يوم أعرف فيه السر .. سر « تو » . ثم اذا بى أسأل نفسى فى حيرة وقلق . هل هناك سر على الاطلاق ، أم هى أوهام تراودنى وتجعلنى أتخيل أشياء لا صلة لها بالواقع ، وعندما وصلت أفكارى

الى هذا الحد ، غلبنى النوم .  
وذهبت فى المساء الى النادى ، وانا اعرف انه لا مفر من لقاء  
حاسم بينى وبين اللواء زهدى . فلما وصل هجمت عليه ، وقلت له  
وقد اتخذت مظهرا حادا :  
- اسمع يا زهدى بك . انت الوحيد الذي يستطيع أن يشرح لى  
الموضوع وأصله وفصله .  
ولم اتركه يتراجع ، فرويت له ما حدث فى قسم الشرطة وحالة  
الهيستريا التى أصابت « تو » . وكأن يستمع الى ، وجهه يتغير ،  
بل كان أحيانا يتقلص من الألم .  
وأخيرا ، جمل يتلفت حوله ، كأنه يختنق ويبحث عن نسمة  
هواء .. ثم جذبني من يدي قائلا :  
تعال معي الى بيتي .. سوف أحكى لك كل شيء .

## الفصل الثالث

يسكن اللواء زهدى فى احدى عمارات « الازارطة » المطلة على ترام الرمل .. وهو يعيش وحده ، وقد تعود على ذلك منذ زمن بعيد منذ أن طلق زوجته التى انجبت له ابنه الوحيد حسن . ويقولون فى النادى ان الطلاق تم والزوجة مازالت حاملا . على أية حال أنها قصة قديمة مضى عليها أكثر من ربع قرن ، وكان قد سبق لى زيارة زهدى فى بيته مرة واحدة ، ومن يومها قررت بينى وبين نفسى الا اكرر هذه الزيارة مهما كانت الاسباب . كان ذلك منذ حوالى عامين ، وكنت قد ذهبت الى النادى فى الصباح ومعى بعض الصحف الأجنبية لأقرأها ، عندما دخل زهدى ، ولم يجد أحدا غيرى من معارفه ، وكان مجيئه فى مثل هذا الوقت أمرا غير مألوف منه ، وجلس معى . وسرعان ما تبينت أنه متوتر الأعصاب ، لأنه قادم لتوه من الميناء بعد أن ودع ابنه حسن المهاجر الى كندا . ورثت لحاله ، لانى أعلم بالمحاولات اليائسة التى بذلها ليقنع « الولد » بالبقاء معه والعُدول عن مشروع الهجرة . كان زهدى يملك أرضا خصبة بجوار كفر الدوار استطاع أن يحولها الى حدائق ، وكان يقول لأصحابه شاكيا : هذه الأرض دخلها السنوى لا يقل عن ثمانية آلاف جنيه ، ويعلم الله الدماء التى نزلتها والأعصاب التى أحرقتها ، لأجعل منها حديقة مشمرة ، ولن كل هذا ، أليس لأبنى حسن ، يرثها ويتمتع بها هو وأولاده ، ولكن هاهو يريد أن يتركنى ويترك الأرض والبلد ومن فيها ويهاجر .. هل سمعتم بشيء مثل هذا . لو كان فقيرا محتاجا لاقتنعت بعماء يريد ، يسافر ويكافح ويشقى فى بلاد الله ليحصل على رزقه ، ولكن الرزق أمامه فلماذا يتركه ، لماذا يترك أرضه ، لبحث عن أرض أخرى لا يعرفها ولا يملك فيها قيراطا أليس هذا هو الجنون بعينه ؟

وكان أصحاب زهدى يرونه متجهبا مهما ، فيعرفون ان الولد مصمم على الهجرة ، وأحيانا يرونه مبتسما راضيا ، فيقدرون أنه نجح فى اقناع الولد بالعدول عن فكرته ، وأحيانا كانوا يسخرون

من زهدى .. قائلين له : الولد له كل الحق في أن يتبرا منك ، وقد يتجرا واحد منهم فيقول له وهو يتبادل معه الشتائم : وما أدراني أن هذا الولد ابنك لقد طلقت أمه من قبل أن تلده .. وكان زهدى لا يقضب من مثل هذه التعليقات الحادة ، بل يواجهها بأن يروى بالفاظ بذئية ، كيف انه واثق من تلك الليلة التي أنجب فيها الولد ، وقد يصفه أكثر من واحد من أصحابه بأنه .. متهما أياه بأنه مصاب بالسفوذ ، ولكن مثل هذه الاتهامات كانوا يتبادلونها جميعا فيما بينهم على طريقة أولاد المدارس . فهي لا تغطي اتهامات حقيقيا ، انها مجرد الفاظ وأسلوب يناوشون به بعضهم بعضا ، وذات مرة تحدث معى زهدى في مشكلة ابنه ، وكان جادا ، يريد نصيحتي .. وكان مما قاله لى ، انه عرض على حسن أن يعطيه مرتبا شهريا من جيبه فوق مرتبه كمهندس زراعى ، وانه على استعداد أن يعطيه مائة جنيه فى الشهر ، وهو مبلغ كبير ، اذا قدرنا أن الولد يستطيع بعد ذلك أن يتزوج ، وهناك عشرات المراسم ، كلهن من بنات أحسن العائلات فى مصر . ولن ترفض واحدة منهن أن تكون زوجة له ، ولكن حسن رفض كل هذه المقترحات كأنه واقع تحت تأثير سحر يلغى قدرته على التفكير فى مصلحته ، ثم أضاف زهدى منفلا :

— هل تصدق ياسيدى ، انى حاولت افساده ، قلت لنفسى ، ربما لو تعود على سهرات الكباريهات والبنات أياها ، فربما يتخلص من هذا العفريت الذى يركبه واسمه الهجزة ، ولكن لا فائدة ، أرسل خطابات ، وتلقى خطابات ، وملا استمارات حتى اضطرت الى التدخل واستخدام صلاتى لمنعه من السفر ، فما كان منه الا أن قاطعنى ، وسمعت أخيرا انه قدم استقالته من عمله .

وسألته :

— ولماذا تقف فى سبيله .. اتركه يفعل مايشاء .

قال محتجا :

— والارض ..؟

قلت محاولا تهدئة روعه :

— سيعود اليها يوما ما .. ليس هذا هو المهم ..

فصاح فى ضيق لا يخلو من سخرية :

— وماهو المهم .. بأذن الله .

اجبت :

— المهم هو أن تثق به .. والا تفرض عليه حياة أخرى غير التي  
تحلم بها .

ورفض تماما هذا المنطق ، وانطلق يحدثني عما يجب أن تكون عليه  
الصلة بين الآباء والأبناء . الولد يرث أباه ويحمل رسالته من بعده .  
لولد مثل المال زينة الحياة الدنيا . والآب يملك ابنه ويتمتع بهذه  
اللكية كما يتمتع بماله الخاص . وإذا كنا سوف نموت يوما ما ،  
فلسوف نحيا في أولادنا ..  
وأذكر أنني قاطعته قائلا :

— ان الحياة التي تحملها أجسادنا الفانية ، هي ملكٌ للحياة كلها ،  
أعني الحياة في جميع البشر ، ونحن لا نستطيع أن نحتكر حياصة  
خاصة بنا يتوارثها الأبناء والأحفاد الى الأبد .. أن هذه الحياة  
الخاصة مرتبطة بأشخاصنا نحن ، ولابد أن تنتهي بوفاتنا .  
فزمجر زهدي :

— هذا كلام نظري تكتبونه في الروايات والكتب ، وأنت تقول  
لأنك أعزب ، ولو كان لك ولد لما قلت هذا الكلام الفارغ .  
وسكت باسمي ، فقد كان على وشك أن يشتمني بالفاظله البذيئة .  
ولكن لم تمض أيام حتى اعترف لي بأنه وافق على سفر الولد .  
وهكذا انتهى الصراع بينه وبين ابنه ، وهامى الصدفة تجمعني به  
وهو قادم لتوه من ذلك الوداع الحزين . وحاولت أن أسرى عنه .  
وفكرت في شيء أقوله يشعره بأنى قريب منه ، فحدثته عن الصلة  
بين رجل الشرطة وكاتب الرواية ، وكيف أن كليهما عليه أن يسجل  
انطباعاته عن الناس ، سواء ماظهر منها وماخفى بدقة شديدة ،  
وحدثته عن سومرست موم الذي استغلت المخابرات البريطانية موهبته  
كروائي ، ليكتب لها تقارير خاصة عن البلاد التي يزورها ، ولاشك  
أنى أفلحت بعض الشيء في جذب انتباهه الى ما أقول . وكنت واقفا  
في نفس الوقت أنه لا يفهم تماما ما أعنيه . وتأكلت لي ذلك ، عندما  
شرع يحدثني عن كتب الأدب العربي القديم التي يقتنيها . وكيف أنها  
في مجلدات أنيقة اشتراها في مزاد أقيم منذ سنوات في قصر تاجر  
لبناني ثري في زيرينيا .. ثم دعاني في حماس مفاجيء الى أن أذهب  
معه الى بيته لانه قرر أن يهديني هذه المجلدات .

تعجبت لحماسه المفاجيء ، وفسرته بأنه يريد أن يطمئن الى اني  
سوف أكون معه اطول وقت ممكن ، وأنه لا يريد أن يخلو لنفسه  
ليواجه ماتعانيه من آلام نفسية بعد وداعه لابنه بحسن ، ثم خطر لي

.. ان الامر قد يكون افدح من ذلك ، فهاهو بلا وعى منه ، يريد ان يتخلص من بعض مقتنياته التى كان لابد ان يحرص عليها لو كان حسن مصه ، يرثها منه ، ويضعها فى مكتبته ليستفيد منها اولاده واحفاده . على اية حال ذهبت يومها مصه الى بيته فى « الازاريطة » ، وعندما دخلنا العمارة فى طريقنا الى المصعد ، مررنا بشقة بابها مفتوح ، وقد وقفت خارج الباب ، امرأة ضخمة ، هائلة الجرم .. بدينة ، شعرها مخضب بالحناء ، وكانت تتحدث بصوت خافت مع رجل ليبى يكشف جنسيته غطاء رأسه وملابسه الخاصة البيضاء ، وما كادت المرأة ترانا حتى رفعت عقيرتها ترحب بزهدى ، وكان صوتها أجش يفضح حياتها المريية .

ومجبت للتحول المفاجيء الذى طرأ على زهدى ، فقد انقلب بفتة الى رجل مرح سليل اللسان ، يخاطب المرأة بكلماته البديئة . وقال لها ، وقد امسك بذراعى ، أنه سيحاول أن يجعلنى واحدا من زبائننا ، وقالت له المرأة وهى تتمايل رغم ضخامة حجمها ، وبلهجة فيها دلال مبتذل ، انها لا تفهم ما الذى يعنيه ، فزعم لها زهدى انى أحد المفرمين بها شخصا .. فأطلقت المرأة ضحكة عالية ممطوطة اقلت الفزع فى قلبى ، وقالت كلمات يفهم منها أن ايامها مضت ، وكانت تتفحصنى وهى تتحدث بمينين فاجرتين ، بينما وقف الرجل اللببى يرقب المشهد فى صبر يوشك أن ينفد ، وفجأة جذبنى زهدى ، ومضى بى مبتعدا الى المصعد ، وكأنه فرغ من طقوس لابد أن يؤديها ، ولا يتوقع من ورائها شيئا ، ولا تتوقع المرأة من ورائها شيئا .. كأن اكون أحد زبائننا فعلا .

وقال لى زهدى وهو يفتح باب المصعد :

— الا تعرفها ؟ منيرة ييجو .

قلت :

— سمعت اسمها يتردد بينكم .

قال :

— أشهر امرأة فى الاسكندرية .

كانوا يعرفونها ، وأحيانا يأتى أحد الاعضاء الى النادى ، وما يكاد يظهر حتى يختفى ساعة أو ساعة ونصفا على الأكثر ثم يعود . ويسأل بمجرد دخوله اذا ما كان أحد قد سأل عنه فى التليفون ، وعندئذ يعرب الجميع ، انه قادم من مغامرة بسيطة ، لقاء سريع ، وأنه قال لاهل بيته انه فى النادى ويريد أن يطمئن الى أن زوجته لم تسال عنه اثناء غيابيه . . ولذلك غالبا مايقابلون العائد من المغامرة مهللين :

التليفون سأل عنك . فيصيح فيهم غاضبا .. ياولاد الكلب ياكدابين .. ولكنه يلقى ويضطرب حتى يقسموا له أن أحدا لم يسأل عنه ، أما اذا وقعت الواقعة وسألت الزوجة أثناء غيابه فالكل يتكاتف فى مواجهة الموقف ، لقد نزل ليودع أحد الضيوف الأجانب ، وسوف يصعد حالا ويتصل بك .. أو .. لقد كان موجودا هنا منذ دقيقة واحدة ولا ندرى أين ذهب لعله فى التواليت .. سوف نخبره ليتصل بك .. وهكذا تتلقى الزوجات اجابات التسويف والمبالطة ، حتى يعود الفائب ، فيجربى لاهثا الى التليفون .. ويأجيبنى تصورى انى كنت فى المكتبة ولم ينته احد الى البحث عنى هناك .

وأحيانا ، كانوا يستقبلون العائد من المفامرة ، بسؤال قصير .  
يسال السائل :

— ازيا ..

ويجيب العائد :

— كويسة ..

ولكن مثل هذه المفامرات ، كانت تقع فى فترات متباعدة ، وقد تمضى شهور قبل أن يحدث شيء من هذا القبيل . وذلك طبيعى بحكم السن ، وظروفهم الاجتماعية . ولاشك أنهم كانوا يطمشون الى منيرة بيجو ، لأنها كانت تتمتع بما يشبه الحماية من زهدى . ومع ذلك فلا بد أن اعترف بأن معلوماتى عن هذا الجانب من حياة هؤلاء الكهول من أعضاء نادينا تنقصها الكثير ، وهى لا تعدو سماع القفشات والتشنيعات العامة ، أما تفاصيل مايجرى من اتفاقات ومواعيسد فكان يتم همسا وسرا ، ولم اهتم بأن أعرف عنه أى شيء ، حتى جاء ذلك اليوم ورأيت فيه منيرة بيجو بلحمها وشحمها ، وهامى تعود الى حديثها مع الرجل اللبى بينما يرتفع المصعد بنا الى الطابق السابع وأنا أرقب ذلك التحول الحاسم الذى طرا على زهدى ، لقد نسى تماما هجرة ابنه حسن ، واصبح من المؤكد أنه فى غير حاجة الى وجودى معه لاسرى عنه ، لقد انطلق يثرثر وقد التمتعت عيناه بفرح مبتذل وحشى ، عن كفاءة تلك المرأة منيرة وقدرتها على لقاء عشرات الرجال ، وكسب عشرات الجنيهاات فى اليوم الواحد . امرأة تعجبك ، أجدع من كل الرجال الذين ليسوا رجالا .. ما الذى لديهم يتباهون به .. هذه الذبول التى تتدلى من بين أفخاذهم ليتبولوا منها .. كان سليطا بذينا . وكنت أشعر بحرج شديد لانى لا أعرف كيف « انسجم » معه فى هذا المجال الذى ينطلق فيه ، وكنت أدرك من

تجاربى مع هذا النوع من الرجال ، أنهم عندما يتدفقون فى الكلام البديء .. ممتزجا بانفعالات عاطفية ، فلا بد أن تبادلهم بذاءة بذاءة وتشاركهم هذا الابتذال متخلياً عن أى حاجز. تفرضه تقاليد أو تربية أو ثقافة أو خجل طبيعى .

إذا لم تستطع أن تدوس على كل هذا ، وتندمج معه ، فسوف ينقلب ضدك حتماً ، وبهاجمك بشراسة . انه لا يحتمل أن تتخلى عنه فى هذا الموقف الذى يتعرق فيه من كل القيم ، انه لا يطيق أن تتفرج عليه ، أو تتعالى أو تنفر أو تخجل أو حتى ترتبك ، ولذلك . فان نجاتى من تلك الحالة الخطرة التى انتابت زهدى كانت أشبه بمعجزة . وربما ساعد على ذلك ابتسامتى التى ثبتها على وجهى ، والقهقهة التى كنت أفتعلها ، ولكنها كانت لحظات عصيبة . قررت بعدها الا اكرر مثل هذا اللقاء المنفرد بزهدى مهما كانت الدوافع والاسباب .

كانت شقة صغيرة ، تبدأ بصالة كبيرة ، تجمع بين مائدة الطعام وفريجيدير وبوفيه ، وتشغل بقية المساحة كنية ستوديو خضراء ومقعدان فوتيل مكسوان بالقטיפئة الحمراء بينهما منضدة عليها راديو قديم ، وفى ركن بجوار نافذة ، جهاز التليفزيون . وكانت هناك بالطبع ، المكتبة التى جئت من أجلها ، ضحكت فى سرى لمنظرها ، فقد كان خيالى قد رسم فجأة صورة لمكتبة ضخمة ، تحوى مجلدات ومجلدات لعيون الادب والشعر العربى ، ولكنها كانت درابا صغيرا ، حقيرا ، ظهرت فيه خمسة مجلدات حمراء ، لأجزاء متفرقة من الاغانى للاصفهاني ، وحيوان الجاحظ ، وصبح الاعشى للقلقشندى ، وكنت قد اقتربت من هذه الكتب وعبرتها بنظرة سريعة ، لاوجه اهتمامى - كما يجب فى مثل الحالة التى كنت أعانى منها - الى مجموعات من مجلات الصور العارية ، ووجدتنى أقول لزهدى فى محاولة ساذجة لارضائه والاندماج معه .

- هذه المجلات هى المهم ، لاكتب الادب يا جنرال .  
وقضم الطعم بسهولة . فقد فرح وصاح منادرا وقد اخذ كلمائى على محمل الجد :  
- هذه لا افرط فيها .. انا استخدمها .  
وانى بحركة بديئة .  
قلت وانا مزهو بالتمثيلية الصغيرة التى اقوم بها : - ولو مجلة



واحدة ..

فأخرج صوتا منكرا وقال :

— أبدا .. ولا واحدة ..

فتظاهرت بخيبة الأمل . وقلت وأنا أشير الى المجلدات الحمراء :

— امرى الى الله . يكفينى هذا الجزء من حيوان الجاحظ ..

فنظر الى مسترييا وقال : — لماذا ؟

قلت : لان به قصصا عن العلاقات الجنسية بين الحيوانات .

فضاقت عيناه هاتفا :

— ولا هذا أيضا ..

ثم ضحك فى شراسة وأضاف :

— هل صدقت انى اعطيك شيئا من هذه الكتب .. هل تظن انى

عبيط .

قالها وكأنه يقرر أنه يملك ائمن كتب فى العالم .

ثم اضاف :

— ولكن .. سوف اقدم ماهو أهم .. ستتناول طعام الغداء

معى .

وأخرج من الفريجيدير بعض الاوانى الالومنيوم ، وساعدته فى

حملها الى المطبخ ليتولى تسخين الطعام ، وعرفت أثناء ذلك أن تلك

المرأة البدنية « منيرة بيجو » هى التى تعد له طعامه مرتين فى الاسبوع

وترسله اليه ليحتفظ به فى الفريجيدير ، وانطلق يشكو منها ومن

سرقاتها . انظر كم هى سميئة .. من أكلى الذى تنهيه .

ثم اضاف بلا أدنى حياء :

— انها اغنى منى .. ولو كان احد غيى لكان أخذ منها ، لا أن

يتركها تسرقه .

قلت له : لعلها تريد أن تتزوجك .

فصاح ضاحكا : لا .. تسرقى احسن .

ثم قال : عيشة وسخة بنت شر .

وقد ردد هذه الجملة بعد ذلك أكثر من مرة ، وكأنها شعار أو

مبدأ ، وعندما ذهبنا الى المائدة ، هاجمنى المقص ، ربما بسبب قلقي

وخوفي منه ، وربما بسبب معرفتي أيضا ، أن تلك المرأة البدنية

الفريية هى صانعة الطعام الذى نأكله ، وكان لابد أن انظاها أمامه

بأنى مقبل على الطعام ، ولكنى تحصنت أيضا باعلانه انى أتبع ريجيما

خاصا يمنعنى من الاكل إلا بمقدار ضئيل .. ملعقة واحدة من

المسقة .. وملقعة ارز .. وقد أصبح كل هوى هو ان اسرع  
بالانصراف هاربا من هذا الكابوس ، لانهى صلتى به ، ولا اعود  
اليه ابدا .

واستطعت بالفعل ان انصرف فور الانتهاء من الفداء ، رغم انه  
الح فى ان يحضر لى بيجاما واستريح على الكنبه الستوديو ، فاعتذرت  
لانى على موعد مع قريب قادم من القاهرة . كان استمرار مواجهتى  
لابتذاله امرا فوق طاقتى ، قد احتمل البقاء معه ساعة او ساعتين  
.. ولكن اعظم ممثلى العالم يعجز عن الاستمرار فى اداء دور مرهق  
طوال هذه الفترة وهو واقف على خشبة المسرح وحده .

وجاءت لحظة الانصراف ، وكان زهدى واقفا يودعنى عند  
الباب ، عندما تفجر الموقف الانساني الوحيد بينى وبينه ، فقد تجهى  
وجهه ، وبدا عليه الالم ، وكان قد امسك ييدى بصافحنى ، فظل  
متشبها ييدى يضغط عليها بكفه ، كأنه يعتمد عليها ليحتمل الما يشعر  
به ، وارتعشت شفتاه ، وهو ينظر فى عينى نظرات متوسلة ، نظرات  
ضائعة .. وقال بصوت متحشرج :

— اندرى لماذا هرب الولد .

نظرت اليه فى دهشة . وراعى ان عينيه يلتقيان بعينى ،  
فيتشابهك العيون او لعلها تتعانق ، وسمعتة يقول كالمخاطب نفسه :  
— يجب ان اواجه الحقيقة .. انا اعرف .. الولد يكرهنى .  
لم أستطع ان انبس بكلمة ، بينما عيناه تتوسلان الى ان اسعفه ..  
بماذا اسعفه ؟ لا ادرى .

وهمست :

— ما هذا الكلام يا زهدى بك ..

بدا وكأنه عجوز فى المائة .. وجهه المربع مكرمش ، وفسكه  
العريض ، هابط متدل .. وعيناه تتسمان لان الجفون تنهدل .. كل  
شئ فيه يبدو وكأنه يساقط .  
وهو يقول :

— الولد يكرهنى موت .

قلت متعمدا ان تكون لهجتى حادة .. لعل تحدثها تدفعه الى

التماسك ..

— كلام فازغ ..

قال هامسا : كأنه يبحث عن كلمات ضائعة :

— انا اعرف ..

وقبل أن أفتح فمى .. رفع عينيه .. حولهما هالات زرقاء ..  
وقال فجأة .. وعيناه كأنهما لا تعرفاننى .  
— مع السلامة .

وأغلق الباب ، وكأنه يطردنى أو يهرب منى ، واتجهت الى المضعد  
وأنا مرتبك ، وقبل أن أدخله ، رأيت وقد فتح الباب ، يخرج هاجما  
على وهو يصيح .  
— أنت لم تأخذ معك الكتب .

وجذبتنى من يدى ، وكأنه لم يرفض أن يعطينا لى منذ قليل .  
كان مصمما على أن أدخل الشقة ، وأحمل معى ما أريده من  
مجلدات . وكان لابد أن أفعل شيئا . وهكذا مدت يدى وجذبت  
أول مجلد ارتطمت يدى به . ولم أعرف أنه الجزء الرابع من صبح  
الاعشى للقلقشندى حتى وصلت الى الشارع ، ومررت بباب شقة  
« منيرة بيجو » دون أن أنتبه اليه ، أو أتذكر وجودها . كنت منفغلا  
بتلك اللحظات القصار التى التقت فيها عيوننا ، وهو يقول لى « ابنى  
يكرهنى » .. كان صادقا . أعنى كان يشعر فعلا أن ابنه قد هاجر  
صباح ذلك اليوم لانه يكرهه ، وهو اعتراف ليس هينا ، ويحمل فى  
ظلماته مشاعر من الالم تكفى لان تغسل وتطهر كل مافى نفس زهدى  
من ابتداء وبداية . بدا لى أنه يحتفى بالبداية ، مما فى نفسه من آلام  
لا يحتملها البشر عادة .. كانت هجرة ابنه موتا من نوع غريب ..  
انفصالا بين الأب والابن .. قضى على كل ماعاش به زهدى من قيم  
وتقاليد .. ابنه لن يرثه .. ولن يكون استمرارا له من بعده ..  
لا أرث ولا استمرار . بل انفصال وبتر .. وعلى زهدى أن يلقى  
بكل حياته فى القبر الذى سيحتوى عظامه بما فيها من دود ينخرها ،  
أو يفهم فى عمر متأخر — يكتن من المستحيل أن يتحقق فيه أى  
من الفهم الجديد — أن حياته سوف تصب فى كل البشر .. كما يصب  
الرافد الطمى فى النهر وكما يصب النهر فى البحر ، ويصب البحر فى  
المحيط ، وتذكرت أن أصوغ هذه الجمل والكلمات فى رأسى حتى  
أواجه زهدى وهو يتهمنى بأن أفكارى نظرية .

وفى مساء ذلك اليوم ، حملت أخبار سفر حسن زهدى الى  
أعضاء النادي . وكان زهدى قد تأخر ، وبدا أنه لن يحضر تلك  
الليلة ، ورويت لهم فيما يشبه التشنيع الذى يقرحون به ، ذهابى  
معه الى بيته ، وتناولى الفداء معه . ولقائى بمنيرة بيجو ، فضحكوا  
وقال رعوف على ساخرا :

— أنصتكم بالابتعاد عن هذه المرأة والا ابتلعتك ..

فسألته متخابها : وهل بلغت انت ؟

قال رافعا يده : أنا عندى القلب .

فصاح أكثر من واحد :

— منيرة بيجو .. كانت السبب ..

وقال آخر :

— إياها كان اسمها منيرة فورد .

وعند خروجى أنا ورعوف من النادى ، قلت له ، وأنا مازلت أفكر

فى زهدى :

— ولكنه بكل تأكيد حزين ، وهو يتألم كأن ابنه مات .

قال وميناه تضيقان :

— سوف ينسى كل شيء .. انه عاجز .

كانت مثل هذه المعلومات ، معلقة فى رأسى ، بلا قيمة ولا أهمية

لها بالنسبة لى .. حتى ظهر « تو » فى النادى .. وبدأت المس تلك

الصلة الغامضة بينه وبين زهدى ، وهى التى فسرها أعضاء النادى

همسا ، بأنها صلة تخابر أو شيء من هذا القبيل ، الى أن وجدتنى

ذاهبا مرة أخرى الى مسكن زهدى فى الأزاربطة لاستمع منه الى

أصل حكاية تو .. وكنت بطبيعة الحال أتوقع أن يكون مايقوله لى

كذبا فى كذب ، وماكان هذا ليدهشنى ، كان الذى يدهشنى أكثر ،

هو اندفاعى بلا مبرر ، وبلا أى هدف . وراء فضول ملح لان أصرف

من « تو » مايطفيه هذا الفضول .

## الفصل الرابع

عندما سمعت اللواء زهدى يقول لى أنه قتل والد « تو » لم أفهم او على الاصح لم اسمع مايقوله . فقد أصابنى الذهول ، او لعلى احتشيت به ، من بشاعة ما اسمع . ومع ذلك كان على أن أواجهه ولكن بعد مرور بعض الوقت . وخلوت الى نفسى فى احدى الليالى ، واذا برعشة تسرى فى جسدى ، وصوتى يرتفع غاضبا صارخا ، ما هذا الذى سمعته ، وتبينت ليلتها ، أن شيئا ما قد أصابه العطب فى نفسى ، ولا ادرى كيف أعالجه ، وقلت لنفسى ، لو قد أصبت فى حادث ، اثناء ذلك السباق المجنون بين السيارة التى أقودها والسيارة التى كان يركبها « تو » وتهشمت لى سناق ، و تكسرت ضلوعى ، لكان الامر أهون ، فهناك اطباء ومستشفيات لعلاج مثل هذه الإصابات اما اصابة النفس ، ومواجهة العجز والعطب فيها فأمر لا ادرى من يعالجه ، وأين أعالجه ، أن الاضطراب يسيطر على تماما كلما تذكرت تلك الليلة التى ذهبت فيها مع اللواء زهدى الى بيته لاسمعه منه الى حكاية تو . وأنا الآن أفهم تماما قوله لى عندما سألته أول مرة « لا تجلب المتاعب بدون مبرر » ، كان يجب على الا اتجاهل صيحته المجلدة ، او لهجته التى شعرت فيها بنبرة الم . ولكن كيف كان يخطر ببالى أن هذا الفضول الاخرق الذى جعلنى أجري وراء « العيال » ، سوف ينتهى بى الى ما انتهيت اليه . ان الاضطراب يعاودنى الآن ، وأنا أحاول إعادة تسجيل مارواه لى اللواء زهدى ، وهناك قوى فى داخلى لا تريد أن تسعفنى ، قدرتى على التذكر تتخلى عنى ، قدرتى على الصياغة تتشتت ، وأوجع فى بطنى تهاجمنى ، ولذلك . أرجو أن يعذرنى من يتتبع هذه الحكاية ، ويقدر موقعى ، فيرضى بأن أقدم له مسودة كتبها لنفسى فى مناسبة سابقة ، ومن حسن الحظ ائى لم امزق أوراق هذه المسودة ، وقد بحثت عنها طويلا حتى وجدتها فى ثانيا مجلد « صبح الاعشى » الذى كان اللواء زهدى قد أهدها لى فى زيارتى الاولى لبيته . . وكنت قد كتبت تلك الاوراق لانشرها ، ولكن فى محاولة منى لمعالجة ذلك التشويه النفسى الذى أصابنى خيل الى وقتها أن الكتابة قد تساعدنى على الشفاء ، او لعلها قد تكشف لى عن طريق للخلاص مما أعانى منه ، ولكن هيهات ، فالامر أفدح بكثير من أن تعالجه كلمات على ورق . وعلى أية حال ، هاهى المسودة ، كما عثرت عليها ، أنشرها

وانا لا اذكر تماما ماهو مدون فيها ، اذ انى لم آتو على مراجعتها او تصحيحها ، فكلما هممت بقراءة السطور الاولى اصابتى دوار .

## المسودة

يجب ان اعالج نفسى ، يجب ان اتخلص بسرعة من هذا الاحساس المخيف بالعجز . وقبل كل شئ ، يجب ان افهم بدقة ما الذى حدث ، ما الذى قاله لى اللواء زهدى فى بيته . المجرم الوغد يقول انه قتل والد « تو » ، وهذا الاعتراف فى حد ذاته يحيرنى ، مامعناه ، وما الذى دفعه لان يقول انه قتل ، هلك هو نوع من الزهو بانه اشرف على عملية القتل ، اهو تائب ضمير ، اهو خوف بدا يساوره فى نوايا « تو » نحوه . بعد ان سمع منى قصص تحديه لرجال الشرطة . على أية حال ، ان كل هذه المشاعر المتضاربة ، او التفسيرات المتعارضة ، هى نوع من الرفاهية اذا ما قورنت بما اشعر به . الذى اواجهه الان بمنتهى البساطة ، هو ان الرجل صاحب المبدأ يقتلونه فى هذا البلد الذى أعيش فيه بصفتى كاتباً ، ثم اسمع تفاصيل قصة قتله ، فأتخاف ولا أجرياً على ان أزق بأعلى صوتى ، وان أعمل بكل قواى لواجه الجريمة وأطارد المجرمين . اكتفيت بمطاردة ابنه فى سباق طائش بالسيارات . انى أختنق ، لا لان الهواء ينقصنى ، فهالدا أفتح كل نوافذ البيت ، ومنظر البحر يمتد امامى الى نهاية العالم ، وأنوار مراكب صيد « المياس » تملو وتهبط ، ولكن الذى ينقصنى هـنو الافكار ، او العزيمة ، او الفهم ، او فى الحقيقة ان الذى ينقصنى الى درجة الاختناق ، هو كل هذه الاشياء التى بغيرها لا يكون الانسان انساناً ، ما الذى فعلته بثقافتى ، ما الذى وصلت اليه بأدبى ، هل انا انسان شاذ ، وزهدى هو الرجل الحقيقى ، ببذاته ، وفجوره ، وقدرته على الاعتراف بالقتل الذى اشرف على ممارسته بالفعل . يجب ان اكف فوراً عن هذا الهراء الذى أكتبه ، الافضل ان أعمل هذه المصيبة ، بمقل بارد كما لو كنت ألعب دور شطرنج . نعم يجب ان ابدأ بوضع القطع فى مكانها من الرقعة ، وأرى كيف تحركت . وأدرس الموقف بدقة وعناية ثم أقدم على النقلة الصحيحة التى يكون فيها التصرف السليم ، والمهم هو ان أجذ النقلة الصحيحة ، والا ضعت ، فهذه فى الحقيقة ليست لعبة شطرنج ، انها لعبة الحياة والموت ، هيا تشجع واكتب المعلومات ، واجهها ، اقرأها واجعلها

تفقا عينيك ، واذا لم تتحمل هذه المواجهة ، فانفض يدك ، واذهب الى بار النادي واسكر كل ليلة ، وتمتع بساعات البار كل ليلة ، وادفع الثمن من تليف الكبد ، وانهيأر جهازك العصبي ، ولا خوف ، فالوت سوف ياتيک لا محالة ، سواء كان بالويسکي ، أو الشيشوخة ، أو الانتحار ، أو بالقتل على يد رجل مثل زهدى فى حفلة من تلك الحفلات التى يقيمونها فى السجن ، ومع ذلك ورغم أن الموت واحد فللواحد منا أن يختار . ترى ماقيمة هذا الاختيار . لو كنت أستطيع أن اقابل ذلك الرجل ، والد « تو » الذى قتلوه . لقد اختار أن يموت هكذا ، كان قادرا على الاختيار . هل أقول طغ . مات فى ستين داهية ، هانذا اشتبه بسفالة لم يجرؤ عليها زهدى نفسه . لانه فى الحقيقة بحرنى وبعظنى . كأنه وهو يموت ، وهو يواجه القتل ، وهو يسقط لافظا أنفاسه الأخيرة ، يجذبني الى حافة هاوية ويقول لى ان الحياة الحقيقية ، هى فى قبول التعرض للسقوط فيها . يقول لى انك لن تحيا حياتك الكاملة وأنت فى مأمن تام من الخطر ، يقول لى ان هناك لحظة تكتمل فيها كل الحياة ، فلا يكون هناك معنى للتخلي عنها مقابل نصف حياة أو ربع حياة ، ويصبح من الافضل على من فاز بلحظة الحياة الكاملة ان يموت ، ليصون ماحققه من اكتمال . هل هذا صحيح ، على العموم لقد جربت شيئا من هذا القبيل . وأنا مندفع بالفاروميو فى شوارع الاسكندرية بسرعة محذونة . كنت أواجه الموت فى أية لحظة ، وأنا لأأهتم ولا أعى بأن هناك خطراً محققاً . كنت اشعر أنى فوق كل مافى هذه الدنيا من قوانين ونظم سائدة ، كانت قوى مجهولة اكبر بكثير من القوى التى يعرفها الانسان فى حياته العادية الرتيبة تدفعنى وتملؤنى بطاقة جبارة لا منطق لها ولا حدود . نعم ان الانسان يقبل مخاطرة الموت بمجرد أن يسبق سيارة مجاورة ، هكذا ببساطة ، يندفع مصطدما بقطار ، يعبر مزلقانا للسكة الحديد ، أو يحطم حاجز الكورنيش ، ويتحطم بسيارته على صخور شاطئ البحر . أن يسبق سيارة أخرى بثلاثة أمتار أهم عنده من الموت . أنه لن يحصل على مال ولن يكتسب طعاما هو محتاج اليه ، انه لا يموت دفاعاً عن حياته ، بل هو يموت لأنه يريد أن يحيا لحظة ما ، تكتمل فيها حياته . هل تكتمل حياتي فى سباق سيارات ، هذا غير معقول . واذا كنت قد عرضت حياتي للخطر فى السباق ، فكان همى الأول ، هو أن التقى بهذا الشاب « تو » . هل يعنى هذا أنى مستعد لان أعرض نفسى للموت ، من

أجل ان اتعرف على انسان ، اى انسان ، اتعرف عليه معرفة حقيقية ولكنى لا اذكر انى كنت اسعى الى التعرف الى « تو » ، كنت اريد ان اعرف عنه ، ان اتبين سره ، وأن اكتشف حقيقة أمره ، وهل هو من رجال المخابرات او شيء من هذا القبيل ام لا . ولكنى اشك الان فى ان هذا كان مقصدى . لا بد ان « تو » كان يحمل فى داخله شيئا يجذبنى اليه . لعلى شعرت بهذا الشيء على نحو غامض ، فى نظراته أو فى لهجته السريعة المتلصمة ، أو منذ ان قال لى وعيناه تضحكان انه يكون مسرورا اذا قال لخصمه « كش مات » لقد خطر لى ساعتها ان أسأل عن خصومه الذين يكرههم الى درجة أن يتمنى موتهم . ومازلت اذكر نظراته الطويلة الغريبة التى واجهنى بها وأنا أقول له انه ليس فى حاجة الى رقعة شطرنج ليقول « كش مات » فهل كان ذكر الموت ، رغم انه جاء بطريقة عابرة فى حديثى معه ، هو الذى جعلنى اسعى الى الاقتراب منه والتعرف الى هذه الحياة اليانعة فى الخامسة والعشرين ، وكيف تتعامل مع الموت وتفهمه . من يدري . ان الاسئلة ان تنتهى ، وأنا اتعمد الان اثارتها ، حتى اهرب من مواجهة مايجب أن اواجهه ، وهو تدوين كل ما عرفته من أحداث عن مقتل والد « تو » .

الحكاية بدأت هكذا ، قال لى زهدى انه كان مديرا لسجن ... فى أواخر الخمسينيات ، عندما جاءت تعليمات من المصلحة ، بالاستعداد لاستقبال دفعة من المساجين السياسيين . وكانت الليلة المحددة للعملية ، هى ليلة رأس السنة فى الساعة الثانية عشرة بالضبط ، وعندما تطفأ الانوار اعلانا بانتهاء سنة ، وبداية عام جديد ، وبينما الناس امثال هؤلاء السياسيين المثقفين ، يحتفلون ويشربون الانخاب لانهم جميعا كفرة يشربون الخمر ، سوف تهبط عليهم حملات الشرطة كالصاعقة فى البيوت التى يحتفلون فيها ، وهى طعنا خفية بارعة ، لانهم متجمعون فى بضعة بيوت ، عند الاثرياء منهم وهذا غريب جدا ، هكذا قال لى زهدى الذى لم يفهم كيف يتورط اولاد ناس اثرياء ومن عائلات كبيرة فى مثل هذه الأمور التى تنتهى بهم الى المعتقلات والسجون ، والأغرب والادهى ، انهم يطالبون بأن تستولى الحكومة على ممتلكات عائلاتهم . اولاد فاسدون ، ملحدون أغلبهم بنظارات من كثرة القراءة والكلام الفاضى ، ولا أحد يعطف عليهم وأغلبهم مصاب بالشلوذ الجنسى لانهم يؤمنون بالحياة البزرمييط وكان زهدى فى قمة الضيق بالموعد المحدد لوصول المعتقلين . فقد



كان مدعوا عند صديق له فى المعادى تعود أن يقضى رأس السنة عنده مع شلة الأصدقاء ، قد لا يلتقون طوال العام إلا فى هذه المناسبة ، وكانوا يحتفلون احتفالا رهيبا ، سكرة بنى . كان يشرب وحده زجاجة ويسكى لابد أن تكون « جراند ماكنيش » وكان يتفاهل بهذه السهرة ولكن أولاد النحس أفسدوا الترتيب وكان عليه أن يرتب للحفلة التى يستقبلهم بها . وكان لابد أن تكون حفلة من النوع الثقيل . وهى تحتاج الى خبير يتولى تنظيمها ، ويجرى لها البروفات قبل وصول الضيوف ، وكان فى مصلحة السجون « خبير يعجبك » اسمه شوكت ، هو الوحيد الذى كان يعرف كيف يرحب بهم . تركى وسيم اشقر ، شكله حلو ، وبينى وبينك هو أيضا معروف عنه أنه عريق فى الشذوذ الجنى . . ولا يجب أن ادهش فالمثل يقول ، لا يقل الحديد إلا الحديد ، ومصلحة السجون تتعامل مع أوسخ أصناف البنى آدم ، ولذلك فهى تستعد لكل نوع برجال من نفس نوعهم . القتلة لا يشكهم إلا من كان قاتلا مثلهم ، لا يهم أن يكون قاتلا بالفعل ولكن لابد أن يكون عنده استعداد لأن يقتل فى أية لحظة ، اذا ماهاج او تمرد المساجين . وكان شوكت هذا ، له شهرة مدوية ، كان قد درب فرقة من الوحوش ، تعمل تحت امره . ويذهب بهم الى أى سجن فى المهام الخاصة ، وقد جاء مع فرقته ، وبدأ يجرى البروفات فى هذا العنبر سوف يدخلون . ثم يهجم عليهم بعض الرجال ويبيدهم الهراوات ، صارخين فيهم أن يتجردوا من ملابسهم ، بلا تأخر ولا إبطاء . يجب أن يصبح كل واحد بلبوسا بغير أى تردد ، أو تفكير فيما يفعله ، ثم يدفعوا تحت ضربات الهراوات الى حوش السجن ، ليمرؤا بين صفين من رجال الفرقة ، وهم يحملون ملابسهم مكمومة فوق رؤوسهم ، وطبعا ، لابد أن يرفع الواحد منهم كلتا يديه حتى لا تسقط كومة الملابس ، وكذلك يصبح جسمه للعارى الملطع معرضا للضرب ، فى أى موقع ، وهو يجرى ، حتى يدخلوا واحدا واحدا فى عنبر آخر ، فيستقبلهم الحلاق ، ويأمرهم بالجلوس القرفصاء ، ويحلق شعرهم نمرة واحد . ثم يستلم من يحلق ملابس السجن . هذه هى باختصار ترتيبات الحفلة ، وقد أجرى شوكت البروفة ، وبدأ أن كل شئ على مايرام . . وما كان زهدى يتوقع أن تحدث مشكلة . فهذه الحفلة رغم ضخامة ضيوفها وأهميتها تقليد متعارف عليه ، وهو ضرورى لأن النزلاء لابد أن تواجههم منذ اللحظة الأولى صدمة صاعقة تكسر شوكتهم ، وكلما كانت الصدمة قوية وشديدة ،

كلما سهلت الامور فيما بعد ، والحفلة الناجحة يتوقف عليها الكثير فى تحديد العلاقة بين المساجين وادارة السجن ، خاصة اذا كان المساجين من المثقفين وكلهم عقد ، فهم يواجهون السجن بشعور قوى من التحدى ، و احيانا يهتفون أو ينشدون أناشيد جماعية ويتظاهر بعضهم بالبطولة ، وقد يكون لبعضهم تأثير على السجنائين الفلابة ، أو حتى على الضباط الصغار الذين خرجوا حديثا من المدرسة . . وقد يتساءل هؤلاء الضباط فيما بينهم عن السبب فى الاعتقال وجدواه ، أو يدخلون فى مناقشات غير مرغوب فيها حول الافكار التى يعتنقها هؤلاء المساجين . وقد يؤدى هذا اذا لم يضرب من البداية ، الى تعاون يؤدى الى كارثته ، هرب أو تهريب يساعد فيه السجنان ، أو الضابط الصغير . لذلك يصبح من المحتم أن تقول أنا هنا ولا احد منكم يا اولاد الكلب يستطيع أن يرفع صوته ، أو يقول أنا رجل ، مسألة نظام ومسئولية ، وآلا انقلب الحال الى فوزى . . انها معركة بين ارادتين . ارادتى أنا . . أو ارادة السجنين ، ولذلك لابد من قهره ، اذلاله وكسر ارادته ، لابد أن تكسر عينه . ثم بعد ذلك ترتاح ، لانه يصبح كالعجينة الطرية تشكلها كما تريد . هذا هو الهدف من الخطة . . وكان يجب أن أشهد حفلة كهذه . قالها زهدى وهو يضحك . مستدركا انه لا يعنى أن اراها كأحد المدعوين ، ولا اقول ان ضحكته افزعتنى لاني كنت اسمع ولا أسمع ، وما أدونه الان لا ادرى كيف أتذكره ، المهم هو أن الحفلة بدأت بالفعل ، واصطفت فرقة شوكت فى أماكنها ، بينما دخل المدعوون العنبر ، وانهلالت عليهم الهراوات والصرخات تأمرهم بالتجرد من ملابسهم . ثم خرجوا مهرولين الى الحوش ، وشوكت فى قمة تلذذه ، كأنه يشتهى مايراه ، أشتهاء جنسيا حادا ، وقد أنطلق وحوشه يفتكون بالضرب العراة ، الذى يسقط فيركلونه بالاقدام ، ويدفسون بالهراوة قى مؤخرته ، والذى تهشم نظارته ، فيمشى كالاعمى يواجه الركلات واللطمات ، والذين يبولون على انفسهم من هول مايلاقونه ، وهم لا يدرون مايفعلون ، والويل لذلك الرجل العريض الطويل ، لابد أن يركع ويخضع ، ويأمره شوكت فى مرح ونشوة أن يصبح بأعلى صوته انه امرأة . وترى كيف أن هذا الحشد ممن يقولون عنهم أنهم مثقفون وسياسيون وأبطال مجرد كومة هشة من اللحم والعظم الذى لا يساوى ثلاثة مليمات ، ويفهم كل واحد فى السجن مكانه . السجنان لم يعد يخشى هذا الافندى المتعلم ، بعد أن رآه عاريا راکعا صارخا

انه امرأة . الضابط الصغير ، ينسى كل شيء عن تلك الافكار التي في رموس هؤلاء المدعورين المنهارين ، وكذلك المساجين انفسهم يفقدون على هذه الصدمة من الحياة التي كانوا فيها منذ لحظات . والتي كانوا قد تعودوا عليها . النوم في فراشهم مع زوجاتهم ، وبين اولادهم بعضهم كان يسكن سرايات وقصورا ، ويملك سيارات فارهة فاخرة ، كانوا يستخدمونها في توزيع المنشورات والكتب ، كل شيء ينتهى فى لحظة بفضل الحفلة ، المعدات تحطم ، دخول الحمام فى الصباح ، وحلق الدقن امام مرآة وحوض فى حمام من القيشاني ، دخول الافطار له فى السرير وشرب الشاي مع قراءة جرائد الصباح ، الكلام فى التليفون ، اختيار رباط العنق المناسب ، والخروج الى الشارع ، وضجة الحياة وطعمها الخاص ، كل هذا ليس من السهل ان تتخلى عنه فجأة وفى يوم وليلة ، تجد نفسك على برش فى زنزانة ، ولتساعدكم على مواجهة الحقيقة ، والاعتراف بالواقع الذى اصبحوا فيه . . لابد من وضع الحديد فى ايديهم ، وربطهم فى سلاسل ، لابد من خلع ملابسهم المدنية فورا ، ويبدؤون الحياة الجديدة عراة كما ولدتهم امهاتهم ، انهم يولدون من جديد ، بملابس جديدة ، ومظاهر جديدة ، والى جانب هذه المظاهر ، هناك ماهو اهم ، وهو مافى داخل نفوسهم ، لقد تعودوا على اسلوب معين فى التعامل ، شغل المثقفين لا مؤاخذه ، مناقشات ، وآراء وافكار ، وكل كلمة تقولها يردون عليها بعشر كلمات ، وكل واحد يظن انه زعيم كبير ، ولابد من ضرب هذا الوهم ، واذا لم تضربه فورا ، وتخلصه منه ، فسوف يتعصب نفسيا عذابا بطيئا لارحمة فيه ، سيصبح كالمجنون تماما ، يجلس على خازوق ، ويتصور انه بطل ، لذلك لا تظن ان مانفعله قسوة ، ابدا ، هؤلاء ناس ماتوا وانتقلوا الى حياة اخرى هى حياة السجن ، ولابد ان يتأكدوا بمظاهر مادية محسوسة من انهم فى السجن ، وان هناك من هو اقوى منهم ، وقادر على اخضاعهم ، والبطش بهم فى اية لحظة ، انه نفس المنطق الذى يقوله ابن البلد عندما يذبح قطعة ليله زفافه امام عروسه ، حتى تعلم من الليلة الاولى ، انه قادر على ذبحها مثلما فعل بالقطعة ، اذا لعبت بذيلها او زافت عيناها هنا او هناك .

ان زهدى بتصور - هكذا ببساطة - ان هذه الافعال طبيعية ، وانها من اصول مهنته ، هى جزء من فن ادارة السجن ، قال ان هذه المعاملة التى يعامل بها المسجونين السياسيين لا تختلف عما يحدث فى الجامعات الاوربية والامريكية ، عندما يدخلها الطلبة الصغار

لأول مرة ، فيهم عليهم الطلبة الكبار في حفلة استقبال ويشبهونهم  
 ضربا ويهدله ، ويعاملونهم بقسوة ويمزقون ملابسهم او يضربونهم  
 بالشلالات ، او يكلفونهم بالقيام بأعمال مهينة ، كل هذا حتى يميح  
 الصفار القادمون من أحضان أمهاتهم ، ويتخلصوا من طفولتهم الكامنة  
 في نفوسهم ، ويتحولوا بهذه العملية التي ظاهرها القسوة وباطنها  
 الرحمة الى رجال ، وطبعا كان الذي يهيم من هذه المقارنة هو فلسفة  
 التغيير بطريق الصدمة بصرف النظر عما اذا كان تغيير أطفال ليتحولوا  
 الى رجال ، أو تغيير رجال ليتحولوا الى كومة لحم وعظم لا تساوي  
 ثلاثة مليمات ، ثم انطلق يزوي الى مقدمات القتل ، فقال انه شخصيا  
 لا يتدخل للضرب بيده ، ورغم طول السنوات التي قضاها في الخدمة  
 سواء في الاقسام أو السجون ، فانه لم يضرب احدا ، لا في قسم  
 شرطة ، ولا في سجن ، لانه من المدرسة التي تعتمد على الهيبة  
 ونفوذ العقل والدكاء ، ولا تحتاج الى استخدام القوة المادية لمواجهة  
 المجرمين العتاة ، تكفيه نظرة او كلمة ينطقها بلهجة خاصة ، وبصوت  
 من طبقة معينة ، حتى يرتجف المذنب وينهار ، والسالة في نسيابة  
 الامر مسألة تخصص ، فاذا احتاج الى استخدام الوسائل المادية ،  
 فهناك المتخصصون في ذلك ، وعلى رأسهم شوكت ، رغم انه هو  
 ايضا لا يمارس الضرب بنفسه ، ولكنه يجيد تدريب رجال فرقته  
 على هذه المهام ، ويكتفى هو بالتلذذ برؤية الرجال ، يقدون رجولتهم  
 ضربا ، أو اذلالا ، أو اعتداء عليهم . مرة أو مرتين ، وجد فيها  
 زهدى نفسه مضطرا الى أن يضرب بنفسه ، عندما تبلغ وقاحة المذنب  
 حدا لا مفر فيه من مواجهته ببطش مبشر فوري . ولكن العملية لا تتم  
 بالتفعل ، فهي تحتاج الى خبرة وحكمة ، وتمهيد وترو ، فأكبر خطأ  
 تقع فيه هو أن تضرب وانت منفعل ، في هذه الحالة تكون قد وقعت  
 في الفخ ، لان انفعالك يجعل منك ندا للمضروب ، وهو اعتراف ضمنى  
 بأنه هزك أو جرحك فأغضبك ، وأثر فيك ، وهذا لا يصح ولا يجوز ،  
 ان المذنب حقير في أسفل سافلين ، وهو لا شيء ، فكيف يؤثر هذا  
 الاشياء في الرجل الذي يتحكم في مصير ، غير معقول ، لذلك يحتاج  
 الامر الى هدوء ورزانة ، وعندما ضرب زهدى ذلك الولد الوقح الذي  
 كان يظن نفسه قادرا على تحدى الاوامر ، وينظر في وقاحة الى من  
 حوله ، مستهينا بهم ، وكأنه لا يهيم شيء ، قرر أن يفعل ذلك حسب  
 خطة مدروسة ، فأقترب من الولد الشقي ، ثم وقف أمامه غير ملتفت  
 اليه ، وتعهد أن يتحدث بصوت هادئ جدا مع ضابط زميل له في

القسم ، وائناء ذلك ، كان يرفع قامته ، ويجمع ارادته ، ويركز كل تفكيره فى الضربة التى سيوجهها ، ثم التفت الى الولد يرشقه بنظرة حادة متعمدا أن تكون عيناه مصوبتين فوق عينى الشقى ، ورسم على شفتيه ابتسامة هادئة .

وقال له : باه انت موش عاجبك الحال هنا ، وقبل ان يجيب الولد ، رفع زهدى يده مشيرا الى شىء ما فى سقف الحجرة ، مخاطبا زميله الضابط ، وكأنه لا يعنيه ماسوف يسمعه من وقاحات الولد ، وفجأة وبسرعة خاطفة ، منتهزا فرصة أن الولد رفع عينيه متتبعا اشارة يده الى السقف ، وجه اليه ضربة ساحقة بكف يده على خده .

وهنا يجب أن نلاحظ أن هذه الضربة تحتاج الى مهارة فنية ، فلو هبطت بكفك على خد الزبون واستقر الكف طويلا على الخد ، فالضربة تفقد قدرا كبيرا من قدرتها ، لابد أن تضرب بطريقة الرج ، أى تهبط الكف بكل ثقلها على الخد وفى نفس الوقت لا تستقر ، بل تحدث رجة وانت تسحبها بسرعة ، هذه الرجة فيها كل الفائدة . وهكذا تكوم الولد ساقطا على الارض ، الضرب فن دقيق ، ويتطلب من الشخص الذى يمارسه قدرة كاملة على التحكم فى اعصابه .

هذه قاعدة أساسية من يخرج عنها يعرض نفسه للوقوع فى أخطار جتى لو كنت تضرب امرأة ، وهو يعرف طبعاً أن الرجل الحقيقى لا يضرب المرأة . الا اذا كان من باب المناغشة وتهيئة الجو ، فهناك بين النساء من يتلذذ بالضرب ، وبينهن مالا ينصلح حالها الا اذا أكلت العلقة الساخنة .

وتأديب المرأة بالضرب امر معترف به شرعا ، اكسر لها ضلعاً ، يخرج لها مكانه ضلعان .

ذات يوم ضرب زهدى تلك المرأة الضخمة القوية منيرة بيجو ، كانت تظن أنها تستطيع أن تضحك عليه ، ولكنه قطع حديثه عن منيرة ومضى يقول أنه أسهب فى شرح حكمة الضرب وفنونه ، ليضعنى فى الصورة ، ولأنهم كيف حدث ذلك الذى حدث ، وانتهى بمقتل والد « تو » .

فقد كان السبب المباشر لمقتله ، هو انفعال شوكت ، رغم أن هذا كان أمراً غير محتمل الوقوع ، لولا أنه اتهمك فى تلذذه ، ونسى نفسه وهكذا شاعت الظروف أن تقع الواقعة .

## الفصل الخامس

كانت الحملة في ذروتها ، الأجساد العارية تنساقط في الحوش تحت ضربات المص ، ثم تنهض مسعورة لاهثة ينهشها الفرع ، لتسقط من جديد ، والواحد منهم ، يركع تلو الآخر عند قدمي الحلاق الذي يخلق له شعره . وكان البعض قد تسلم بالفعل ملابس السجن وأسرع يرتديها ، وقد أصبحت بالنسبة له ، في تلك اللحظة ، نعمة تهبط عليه من السماء ، وملاذا يحتوى به من الهول الذي رآه . وكان زهدى قد بدأ يشعر بالملل ، فقد شبع وحصل على كفايته ، وكان ينظر في ساعته بين لحظة وأخرى ، وهو يفكر في اللحاق بأصحابه في المعادي ، ليشرّب له كأسين حان موعدهما ليتم الانسجام ويكتمل المزاج ، وهو يعترف بأن المشهد الذي رآه ، قد حرك غرائزه ، فراودته رغبة جامحة ، في أن يفاجئ أصحابه في المعادي وهم سكارى ، فيطيط بهم كما يشاء ، وأن ينتهز الفرصة فيصفع كل واحد منهم على قفاه ، كان زهدى وهو يتحدث عن أصدقائه على هذا النحو ، يؤكد لى مرة أخرى ، انى أمام رجل لا يستطيع أن يتعامل مع الآخرين ، ولا يعرف كيف يعبر عن نفسه ، الا من خلال تبادل الشتائم والاهانات وقد علمنى زهدى أنه اذا كان للانسان تلك الافاق السامية الرجبية من الكرامة وعزة النفس والمثل العليا ، وهى مجالات لا يستطيع أن يصل إليها حيوان آخر غير الانسان ، فان الانسان ايضا عنده استعداد للهبوط الى هوة سحيقة من الانحطاط والسفالة والحقارة ، يعجز الحيوان ، بل تعجز الحشرة الدنيئة ، عن التردى فيها . فلا أظن أن صرصارا يتلذذ بضرب صرصار آخر على قفاه ، ان فى نفوسنا نحن البشر طاقات من الخير والشر ، والنبيل والسفالة ، والسمو والحقارة ، بحيث أصبحت حياتنا فى كل لحظة ، مسرحا لممارك لا تنتهى بين النقيض وتقيضه سواء كانت الممارك من حولنا ، أو داخل نفوسنا . على أية حال ، لم يأت بعد الوقت الذى أرتى فيه البشر ، والاجدر بى أن امضى فى تسجيل المعلومات ، فبينما كان زهدى يستعد لانهاء الحفلة ، كان شوكت يتابع المشهد بكل حواسه وجوارحه

وهو يتمابل بجسده طربا . وكان الانين والصراخ وصوت ارتطام  
 الهراوات بالعظام ، ولهاث الضاربين والمضروبين موسيقى حارة دافقة  
 قد استولت عليه كما تستولى دقات الزار على امرأة ركب جسدها  
 عفريت . وادرك زهدى أن الصعوبة الحقيقية فى انهاء الحفلة ، هى  
 فى آفاقة شوكت من نشوته . وهو الوحيد القادر على اصصدار  
 الاوامر لوحوشه بالتوقف ، فقد أنتشى هؤلاء الوحوش باللحم والعظم  
 الذى يفترسونه ، واهاجتهم صرخات الالم ونافورات الدم التى تنشق  
 هنا وهناك . وادار زهدى بصره فى جولة فاحصة لمسرح الحفلة ،  
 وهو يجمع قواه ، ليتخذ قراره بأن يتدخل لدى شوكت ويقول له  
 كفى . وهنا حدث شيء لم يتبين زهدى حقيقته أول الامر ، فقد  
 وقعت عيناه على شخص يرتدى الملابس المدنية ، وكان واقفا بنظر  
 فى هدوء الى مايجرى حوله ، وكان لا شأن له بالامر . ويقول زهدى  
 ان تلك اللحظة مرت به فيما يشبه الحلم ، وهو يعجب كيف أن رجلا  
 خيرا مثله ، يرى ذلك الشخص فلا يفتن على الفور الى حقيقة امره  
 كان رجلا قصيرا ، ربعة ، له رأس ضخم ، والتقت عيناه زهدى  
 بعينية ، ولم يحدث أن ظهر أى نوع من الخوف أو القلق فى عيني  
 الرجل ، لو كان زهدى قد شعر أن الرجل قد ارتبك لفهم فى الحال  
 حقيقة الامر وهو الذى تعود أن ينهش اعماق المذنب وبهتكها بنظرة  
 واحدة . أن عينيه تسمان مثل أنفه ، انها تشم رائحة القلق ، ورائحة  
 الخوف ، حتى لو اخفاه من يعانى منه . كان الرجل يرتدى بدلة بنية  
 وقميصا سكروته ، ورباط عنق أخضر ، ويقول زهدى ساسخرا من  
 نفسه ، ان كل الذى جلب انتباهه فى تلك اللحظة ، هو رباط العنق  
 الاخضر ، فقد فكر فى أنه رباط أثيق ، وتساءل ترى من أين يكون  
 قد اشتراه . مجرد تساؤل غابر ، انشغل بعده تماما بما يجسرى  
 أمامه من أحداث كانت تبدو لحظتها اكثر اثارة وصخبا . وكان  
 شوكت يقف على بعد مترين من زهدى ، متغمسا فى ملذاته واعجابه  
 بوحوشه المدربين والعرض الباهر الذى يقدمونه . ولعله هو الآخر  
 قد رأى ذلك الرجل ذا رباط العنق الأخضر فلم ينتبه اليه . هكذا  
 شاءت الاقدار ، أن تدخر مفاجأة لنهاية الحفل ، ليست فى حساب  
 أحد ، فمن كان يتصور شيئا خارقا وغير عادى الى هذه الدرجة ،  
 هل يعقل أن يكون وسط هؤلاء العسرايا ، شخص رفض أن يخلص  
 ملابسه ، هل يعقل أن يكون هناك من فكر فى تحدى الهراوات والاوامر  
 الهادرة ، أن تصور هذا امر مستحيل ، فما الذى يستطيع أن يفعله

هذا الاخفق امام هذه القوة الرهيبة وهو اُمرل لا حول له ولا قوة .  
لو فكر لحظة ، لعرف أن فعلته هذه سوف تنتهى بسحقه تماما ، وأنه  
سيلقى من الاهوال ما يجعله يتمنى لو لم يولد أبدا . ومع ذلك فقد  
نجح فى خطته لبعض الوقت . لان الجميع ، من المساكر والضباط  
لم يخطر ببالهم أن هذا رجل لا يدعى للاوامر ، ان الامور كانت تجري  
حسب الخطة الموضوعة ، وحسب البروفة المتقنة التى أجسراها  
شوكت ، ولم يضع أحد فى حساب الخطة ، ولا فى البروفة ، أنه  
عندما تصدر الاوامر لهم بأن يخلعوا ملابسهم ، ان واحدا سوف  
يتخلف ، طبعاً كان المتوقع أن يترددوا أو يتلکأوا ، فأغلبهم لم يخلع  
ملابسه ويقف عاريا فى مكان عام من قبل ، ولواجهة التردد ، يبدأ  
الضرب فورا فى نفس اللحظة التى تصدر فيها الاوامر ، وعندئذ  
ينصاع الجميع ، وهكذا اندفع رجال شوكت يضربون كل العراة ،  
الذين يحملون فوق رؤوسهم كومة الملابس المخلوعة ، أصبح الهدف  
واضحاً ومحدداً ، وهو اللحم العارى ، والاذرع الممتدة فوق الرؤوس  
والسيقان المرتعدة ، والأجساد المدمورة القافزة فى الهواء أو الساقطة  
على الأرض . أصبحت كل الميون وكل الايدى القابضة على الهراوات  
تجربى بطريقة آلية مطاردة هذه الاهداف المحددة والمتفق عليها . لقد  
سقط الجميع فى اطار الحفلة ، بشقيها : فرقة الضارين ، وجماعة  
العراة المضروبين . ولذلك لم ينتبه أحد الى وجود هذا الشخص الذى  
ظل خارج الاطار المرسوم ، وكان من الممكن فى مثل هذه الظروف  
المحمومة الا ينتبه اليه أحد حتى نهاية الحفل . وكان من الممكن ان  
يتدبر امره بعد ذلك مع سجان يعطف عليه . وينضم الى زملائه  
محتفظاً بهيئته ، وان كان هذا امر يصعب تصوره وفهمه ، ولكن ماذا  
تقول امام تصارييف القدر والاعيبه القريبة ، التى جعلت الجميع  
لا يبصرون ما يرون أمامهم .. وتقدم زهدى وأمسك بيد شوكت  
وهزها ، فلما انتبه اليه ، نظر اليه بعينين مغمعتين بالسرور والامتنان  
ويقسم زهدى انه رأى فى ميني شوكت ولها وحنانا أثويا ، وقد مد  
يده تضغط على يد زهدى وتفركما كأنه يدعوه دعوة صريحة الى  
فراش .. فلم يتمالك زهدى إلا أن يهمس فى أذنه واصفا إياه بحقيقة  
أمره ، فغمز له شوكت بعينه ، فقال له زهدى أنه قد آن الأوان للانتهاء  
من هذا الامر كله ، فبدأ على شوكت الاسى ، والاستعطاف ، قال له  
زهدى أنهم هلكوا ، وأن رجاله قد نالهم التعب ، وكان شوكت بهرب  
بعينيه حتى لا يسمع ، وفجأة اعتدل فى وقفته ، وتسمرت عيناه فى



اتجاه واحد لا يتغير ، وشحب وجهه وفتح فمه فى غباء ، ونظر زهدى فى نفس الاتجاه ، فرأى ذلك الرجل القصير الزمعة .. الضخم الرأس ، ذا البدلة البنية ورباط العنق الأخضر . وعندئذ فقط ، فهم زهدى ، وأدرك دفعة واحدة سر الرجل .. وكان أول ما قاله بيثيه وبين نفسه أن هذا الرجل قد مات بالفعل .. ورغم أن شيئا لم يحدث بعد ، فقد شعر بانقباض . وفى نفس الوقت نشط عقله . وقد هاجمته دوامة من الصور .. كان يرى الرجل صريعا ، وكان يرى أصحابه فى المعادى سكارى . وكان يرى شوكت شاحبا واجما وكان انقباضه يحدثه حديثا هامسا بأن هذه الليلة لن تنتهى على خير ، وقبل أن يتخلص من هذه الدوامة ، رأى شوكت يتقدم ببطء نحو الرجل ، ولم يستطع أن يتحرك ورائه ، ظل جامدا مكانه يرقب الرجل وهو يصوب نظرات ثابتة جسورة ، فى اتجاه شوكت ، كان الوقت قد فات لمن يحاول أن يمنع الصدام ، ثم يعود زهدى ويقول بصراحتة الحيوانية ، أنه كان يترقب هذا الصدام بشغف ، وكأنه لو تدخل ، سوف يحرم من متعة نادرة ، تفوق متعة سماع أم كلثوم فى حفلة من حفلات العمر . نظرات الرجل ، وذلك الفصل العجيب الذى أقدم عليه ، جعل من لقائه بشوكت مباراة مثيرة ، أنك لا تستطيع أن تفسد مباراة الموسم بين الاهلى والزمالك ، أو توقف بطولة العالم بين محمد على كلاى وجو فريزر ، قال زهدى أنه بعد مضى كل هذه السنوات ، لا يريد أن يخدعنى ولا أن يخدع نفسه . وأنه كان يتمنى أن يحدث الصدام ، وأن يتمتع بحدوثه ، وأن كل ما كان يخشاه هو احتمال انهيار الرجل بسرعة أمام شوكت ، وأن هذا الانهيار سوف يكون مخيبا لتوقعاته فى الحصول على مزيد من المتعة والاثارة ، وهى متعة فيها أيضا رغبة فى الانتقام والاثارة ، وهى متعة فيها أيضا رغبة فى الانتقام والتشقى من هذا المخبول الذى تحدى هيبتهم .. لابد أن يسقط ، وأن تهشم أنفه فى أرض الحوش ، وسوف يكون جسده المربع ورأسه الضخم الذى يشبه كتلة الصخر ، شيئا مناسبا لتلقى ضربات الهراوات وركلات الأقدام . كان شوكت قد وصل الى الرجل ، وعندئذ فقط تقدم زهدى خطوات ، ولكنه ظل محتفظا بمسافة كافية بينه وبين الرجلين . والغريب أن أحدا من رجال شوكت لم ينتبه حتى تلك اللحظة الى مايجرى وما سوف يحدث . وزملاء الرجل كانوا فى حالهم وليست لديهم أدنى فرصة ليذكروا شيئا تغير الذى يلاقونه فى المعركة .. ومضت لحظات ، وشوكت واقف يتأمل الرجل

وليس بينهما أكثر من شيرين : العين فى العين .. وقد ننى شوكت وسطه فى وقفة متخلعة ، والرجل لا تتحول عينه عن شوكت ، لا يهتز له رمش .. وقد ظهر الآن أنه كبير فى السن ، يبلغ الخمسين من عمره ، شعره أشيب ، وصدق حدس زهدى فى أنه من المدرسين فقد اتخذ مظهر ناظر يقف فى فناء مدرسة . ولا يعجبه ما يراه .. شيء غريب حقيقة ، لم ير زهدى مثيلا له ، مع طول خبرته فى معاملة أعتى الاشقياء ، والسفاحين . نظرات ليست شريرة ، ولكنها تستفزك بما هو أكثر من الشر ، وكان شوكت يثنى جسده الى اليمين فاعتدل واثنى ناحية الشمال وخرج صوته ناعما متكاسلا .. صوت ثعبان أرقم يخدر فريسته قبل أن يلدغها اللدغة القاتلة .

سأل شوكت :

— اسمك إيه ؟ !

ونظر الرجل نظرة طويلة حادة ، وحرك شفثيه ، وقال اسمه بصوت خفيض .

وعاد شوكت يسأله بنعومة اكبر :

— اسمك إيه يا شاطرة ؟ !

ولم يحول الرجل عينيه عن شوكت ، ولم يقل شيئا .  
فالتفت شوكت الى زهدى قائلا فى ميوعة يعرف أنها مقدمة لكل الشراسة التى يمكن أن يتخيلها انسان .  
— شوف يازهدى .. الحلوة دى مكسوفة موش عايزة تقول اسمها .

كانت تلميحات شوكت تنبئ بشئ مستطير ، ووجد زهدى نفسه لا يحتمل ما قد ثار فى مخيلته من توقعات ، فصاح بصوت كالرعد .  
— اسمك إيه ؟

واذا بالرجل يقول بصوت قوى :

— أنا قلت اسمى .

كان صوته متحديا مستفزا ، ان دل على شيء ، فعلى غباء مطلق ، وعدم فهم لحقيقة الموقف الذى هو فيه ، والعواقب الوخيمة التى سوف تنجم عنه .. لقد قال الله سبحانه وتعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » لو عرف الرجل نوايا شوكت وما يستطيع أن يفعله به لانهاى على قدميه تقبيلا لحذائه ، ولكنه كان غبيا بليدا .  
وعاد شوكت يقول بصوت فيه نبرة حادة :

- هنا يا شاطرة .. لازم تسمعى الكلام ولما تجاوبى تقولى يا أفندم .

وقبل أن ينتهى من كلماته ، كان قد رفع يده وهوى بصفعة قوية مدوية على ذلك الوجه المنيد الذى تلقى الصفعة فى بلدة غريبة .  
وعاودته نمومته وكأنه لم يفعل شيئاً وقال :

- عايز اسمع صوتك . اسمك يا حلوة وتقولى يا أفندم .. فاهمة ..  
.. علشان أحمر لك خدودك .. واحط لك روج .. وتبقى عروسة .  
حلوة .

كان الرجل يسمع ولا يبدو عليه أى اثر للخوف ، لم يتراجع ، لم يهتز ساعده ، استعدادا لداء صفعة جديدة ، لم يفعل شيئاً على الإطلاق ، واكتفى بنظراته الثابتة ، التى أصبحت أكثر نفاذاً ، وكأنها تتفرج على شوكت ، أو هى موجهة الى منظر مجهول .  
وارتفع صوت شوكت :

- انتى سامعانى .  
ومد يده ، ولم يصفح الرجل ، بل ربت على خده فى حنان ..  
وهو يردد :

- انتى وحشة ، وسايقة الدلال ليه ياللا قولى اسمك .. وقولى يا أفندم .

وانهال عليه شوكت بصفتين سريعتين متتاليتين ، والرجل لا يتحرك ، ولا يرفع يده ليدافع عن نفسه ، وكأنه لا يسمع شيئاً ، ولا يشعر بشيء على الإطلاق .. كأننا غير موجودين . كان كل مايجرى أمامه لا صلة له به .. اللعين الوقع ، كان لابد من كسره وإذلاله ، والا ضاعت هيبة الجميع ، ولم يعد زهدى قادراً على اتخاذ موقف المتفرج الذى يشهد مباراة كرة قدم أو يسمع أم كلثوم .. هذا التحدى للسلطة لابد من قمعه وسحقه ، هذا الكلب لا يريد أن يتعامل معهم ، لا يريد أن يستسلم ، يتوهم أنه وهو اعزل ، قادر على مواجهة هذه القوة الرهيبة التى تقف أمامه .. قال زهدى وقد رأى أن الامور سوف تنتقد :

- سييهولى يا شوكت .

كان زهدى قد اعتزم أن يقض الحفل وأن يتدبر أمره مع هذا الرجل على انفراد فهو كرجل محنك بفضل أن يتم مثل هذا التدبير أمام أقل عدد ممكن من الشهود وربما الافضل ألا يكون هناك شهود على الإطلاق .. ومن المهم جداً ، وفى كل الاحوال ، ألا يتنبه أحد من

الآخرين الى ما يحدث .. لو تنبهوا فسوف يلتهب الجو وسوف  
تعرض حياة زهدى وشوكت للخطر . تصور هذا الفناء والعناد  
ينتقل الى الآخرين ، فيلوثون ويهيمون على العساكر ، أن الحيوانات  
الجريئة تكون شرسة الى اقصى حد ، وهى مسالة نفسية وبمجرد أن  
يقرر واحد منهم أن يبيع عمره فالعدوى تنتقل الى الجميع ، ومعنى  
هذا أن تتحول الحفلة الى مذبحة ، ودماء تسيل حتى الركبة ،  
وسين وجيم ، وفضيحة لا نعرف الخلاص منها . ويضيع مفزى  
الحفلة ، ولكن شوكت ما كان ليسمع كلام زهدى .

كان الامر بالنسبة له أفدح وأخطر من هذا كله ، اهم شيء عنده  
كان أن ذلك الرجل قد أفسد عليه تشوقه ، وقطع عليه شهرته وهى  
فى اكتمالها ، وما كان لشوكت أن ينهزم امام هذا التحدى ، وهو  
الذى يعيش بفكرة واحدة ثابتة يقيم عليها حياته ، ويستمد منها  
شهرته ووظيفته ، وهو انه مخلوق كل مهمته فى الدنيا القضاء على  
هذا الشيء الذى اسمه رجولة ، وان هذه الرجولة وهم ، ونسكتة  
يخدع بها الناس انفسهم .. وهو فى قرارة نفسه يؤمن حقيقة  
بذلك ، ويعتقد انه مامن رجل يستطيع أن يصمد امامه ويفتح عينيه  
فى عيني شوكت قائلا له ، أنا رجل ، وانت لست رجلا .. حتى  
زهدى كان يخشاه وكل الذين يتعاملون مع شوكت يخشونه فهم  
يستخدمونه كما يستخدم أصحاب السيرك حيوانا شاذا مفترسا ،  
يقدمون له الطعام ، والرعاية ، ويستعرضون شراسته ويخشونها فى  
نفس الوقت ويحترسون منها .. ذات مرة قال ضابط كبير لزهدى ،  
انه افاق ذات ليلة فزعا على كابوس رأى فيه شوكت فى صورة  
امراة غولة تطارده ، وبعد أن ضحكا ساخرين من هذا الحلم الغريب ،  
قال الضابط لزهدى مهموما وقد استغرقه تفكير ذاهل ، انه أحيانا  
يفكر فتشيط به الافكار ، مع التقلبات السياسية التى تحدث  
وما يصاحبها من عزل وفصل واعتقالات ، فيخشى أن يأتى يوم يجد  
فيه نفسه تحت برائن شوكت . واتفق زهدى مع صديقه الضابط ،  
أن شوكت سيكون فى قمة سعادته ، لو اتاحت له الفرصة لأن  
يفتك بأحد من زملائه أو رؤسائه ، فكلما كان الرجل صاحب هيبة  
أو نفوذ ، كان ذلك ادعى الى تألق شوكت وازدهاره عندما تتاح له  
فرصة اقتراسه . أن شوكت يسمع باستمرار « فلان عامل راجل  
هاتوله شوكت » .. « فلان لا يريد أن يعترف ابعث له شوكت » ،  
ويأتى شوكت ، لينفذ المهمة ، وليثبت لنفسه أولا وقبل أن يثبت لاحد

آخر ، ان هذا الذى يظن نفسه رجلا ، كان كاذبا واهما يستحق ان يفيق من اوهامه ، وان يخضع ويركع ويهان ، وانه يقف صارخا من الهول امام الشهود ، انه امرأة .. وهكذا يشعر شوكت بالراحة ، وتنسجم نفسه ومشاعره الدفينة مع ماحوله من مشاعر ونفسيات . لذلك كان نداء زهدى محاولة ميثوسا منها ، فما يواجهه شوكت فى هذا الرجل القصير الربعة ذى الرأس الضخم ، ليس تنفيذا تعليمات ، ولا اشرافا على مساجين وتأكيد النظام بينهم ، ان ماواجهه هو معنى حياته كلها ، فاما هو ، واما هذه الكتلة الصامدة التى يعلوها الشعر الاشيب والتى تنظر اليه بعينين غير خاضعتين .. ان صمود ذلك الغبى هو التحدى المستحيل لشوكت ، الذى تورط فى المواجهة ولم يعد هناك مهرب منها .

صاح شوكت وقد غلبه الانفعال على غير عادته :  
- قول انا مره .

وجعل يردد الطلب صارخا ، ثم انفجر فاقدا صوابه فانهازل على الرجل بالصفعات والكلمات والركلات فى بطنه وفى قصبة ساقه .. والرجل كانه لا يحس ، لاشك انه رغم تقدم سنه كان يتمتع بقوة جسدية لا بأس بها ، وكان يتمتع بقدرة تحمل عجيبة ، فمن الذى يحتمل كل هذا ، دون ان يدافع عن نفسه ، ولا يصدر عنه تأوه أو أنين أو أى شيء . وكان شوكت لين الجسد ، فيه طراوة .. ولم يتعود على الضرب ، فلم تحتمل يداه وساقاه ما أقدم عليه من عنف ، وشعر بألم شديد فى ذراعيه وساقيه ، فصاح بالرغم منه بعد ركلة وجهها الى ساق الرجل .. وكان صوته أشبه بالولولة .. لفت انظار وحوشه الذى تركوا ماكانوا فيه واندفعوا الى شوكت ليتلقفوه مع زهدى وهو يترنح ، حتى استعاد توازنه ، فواجه وحوشه بسبهم ويشتمهم ، معلنا انه سينزل بهم أقصى عقاب ، لانهم تركوا هذا .. مشيرا الى الرجل . كيف لم يخلع ملابسه ، كيف لم يضربه .. كيف لم يهتكوا عرضه .. كيف .. وكيف .. كان الوحوش يستمعون فى ذهول ، ولا احد منهم يجرؤ على الاقتراب من الرجل ، ولعلمهم لم يفهموا كلام شوكت أو تشككوا فيه ، حتى صرخ فيهم أن يهجموا عليه . فتقدم واحد وضربه بهراوة على ذراعه ، وامره أن يخلع ملابسه .. فلم يتحرك الرجل .. فصاح شوكت ..

- مز قوه .

وانهالت الضربات ، بطيئة اول الامر ، ثم اشتدت ، وتدافعت ، ولم يعد أحد يدري ما الذى يضربه ، الكل محيط بالرجل وهراوة ترتفع وهراوة تهبط ، وهراوتان وثلاث وعشر هراوات ، ترتفع وتهبط ، وتضرب وتضرب وتضرب ، واصوات ارتطام مكتومة ترتد من الجسد المربع القصير ذى الرأس الضخم ، والدم ينبثق وينشال على وجهه وصدره ، وفقد زهدى قدرته على التفكير ، وتخلت عنه خبرته ، وغرق فى المشهد واللحظة ، وقد تركزت فى صدره رغبة واحدة وكأنها أمنية العمر ، لو كان يملك لنذر للسماء شيئا لتحقيق الأمنية ، ان يسقط هذا الجسد القصير المربع ذو الرأس الضخم على الأرض ، لم يعد الجسد جسدا .. لا قصيرا ولا مريعا ولا رأسا ضخما . تحول الى شيء غامض تحقن عليه ، يتحداه ويهينك بصموده ، وعدم سقوطه ، ولا يدري زهدى ما اذا كان قد اشترك فى الضرب فى تلك اللحظات التى كان لا يحكمها عقل ولا تتركها حواس . فكل ما كان يجرى كان مختلطا مضطربا ، وهو لم يتبينه ولم يتذكر تفاصيله ويسترجعها الا فى مناسبة يصفها بأنها كانت عجيبة . ويخيل الى أنه يكذب وهو يستحضر هذه المناسبة . ولكنه يريد منى أن استمع الى المشهد الختامى ، بعد أن يأخذنى من يدى الى مكة والمدينة المنورة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، هل هو يخدعنى . أم يخضع نفسه . على أية حال يكفينى أن أسجل الآن الصورة كما قدمها لى ، لقد وقف أمام شباك النبى فى المدينة المنورة ، يطلب واسطته فى قبول التوبة عند الله ، وأن يغفر له ذنوبه ماتقدم منها وما تأخر . وانهمرت الدموع من عينيه — هكذا كان يقول لى — بصوته الفاجر ودون أن يبدو عليه اى مظهر للتأثر الحقيقى . وكأنه يعتقد انى سوف أصدق له مجرد أنه يرفع صوته بالكلام .. المهم انه يقول ان دموعه تسيلته وطهرته ، وأنه كان يرى الذنوب التى ارتكبها قائمة مصورة فى عينيه وهو يتنهل ويتوسل فى حضرة سيد المرسلين ، كل ذنب مهما صغر أو كبر ، أهمها ماكان يصدر منه نحو امه من الفاظ وتصرفات . فهذه كان يراها فتتهطل دموعه كالطرر المنهمر ولا تفلسها الا بصعوبة .. وكان من بين ماراى ذلك المشهد الذى كان يتمناه فى ليلة حفلة السجن ، مشهد سقوط الرجل .. وعرف أنه كان يتمنى سقوطه حتى يتخلص مما يلاقيه من عذاب .. والذى عرفه زهدى فى تلك الصورة التى رآها من خلال دموعه فى الحضرة الشريفة ، هو ان الرجل مات واقفا

وأن جسده المربع احتفظ بتوازنه لفترة من الوقت فلم يسقط، وعندما سقط الجسد ، كان بسبب ركلات فى بطن الركبة ، فأنشئت الرجل ، فتداعى الرجل على ركبتيه وجسده قائم منتصب ولكنه كان ميتا . وكانت الضربات والركلات مازالت تلاحقه ، لأن هينيه ظلنا مفتوحين ننظران فى جمود واستخفاف ، ولا أحد يدرى أنها نظرات موت . ثم سقط الجسد على الأرض . ويعتقد زهدى أن الله قد غفر له تماما هذه الجريمة ، التى يتحدث عنها ، وكأنها خطأ فنى وقع فيه ، وكانت له نتائج السخيفة التى مازال يعاني منها .. ثم أراد عند هذه المرحلة من الحكاية أن يتوقف ، وأن يتحدث ممي عن تو .. وتلك الحالة الهستيرية التى تملكه ، فتجعله يتحدث رجال الشرطة ، وقال لى أنه لم يسمع بها من قبل .. ونظر الى فى حذر لا اظن أنه كان موجها الى ، ولكنه حذر مما قد يكون فى رأسه من خيالات وتوقعات عن « تو » .. اذ قال فجأة :

— الولد .. انا أعامله وكأنه ابنى تماما .

وخيل الى انى أسمع نكتة ، فابتسمت على الرقم منى ، فما هذا السمك اللين التمر هندى ، ما هذا الجنون والاختلاط فى المشاعر ، الذى يعاني منه زهدى ، بحيث أنه يعترف لى بأنه أشرف على قتل والد تو ، ثم يختتم الاعتراف بأنه يعامل ابن القتل كأنه ابنه .. مرة أخرى ايقنت أنه كاذب ، وهو اما يكذب على وحدى أو يكذب على نفسه أيضا .. وهذا احتمال بعيد .. فهو أشد فجورا من أن يخدع نفسه ، وما حديثه عن التوبة والحج وقبر الرسول وأبوته لتو ، إلا صور يتحلى بها ، ولكن أهميتها اقل بكثير عند رجل مثله ، من أهمية رباط عنق يراه فيعجبه ، سواء يراه فى قترينة دكان فيششره أو يراه فى عنق والد تو فيقتله .

ومع ذلك ، لابد أن أتروى فيما أقول ، ولعل الأفضل ألا أشغل نفسى بقضية زهدى الشخصية ، قبل أن أسجل تلك المواقف الغريبة التى تعرض لها بسبب مقتل والد تو .

لقد سقطت الجثة على أرض حوش السجن . فماذا بعد ؟

## الفصل السادس

ان مقتل سجين ليس بالمسألة الهينة ، فكان لابد من التصرف بسرعة ، لقطع دابر الاشاعات والاقاويل . ولكن كيف يتصرف زهدى أمام عشرات الشهود ، اكثر من مائتى عسكري وضابط وسجين ، كل من شهد الحقلة كان شاهدا لمصرع الرجل ، والشاهد ايا كان مصدر للخطر ، وأنت لا تضمن العساكر ، وماقد تلوكه السنثم ، ومهما كان ولاؤهم ، فقد يصدر عنهم أى شيء ، أغلبهم جاهل بنزئر ، أو يتباهى او تتباه حالة من حالات الشفقة والضمير ، كل الاحتمالات قائمة تفغر فيها ، كان العساكر هم الجانب السهل من الشهود ، أما الجانب الذى لا تستطيع أن تسيطر عليه ، والذى كان من المتوقع انفجاره ، فهو جانب المعتقلين ، ولا يمكنك أن تعالج المشكلة بأن تجمعهم وتحرقهم في قرن كما كان يفعل هتلر وتنخلص منهم ، وأصر زهدى على أن أفكر معه ، أو على الاصح أن اتبع منطق تفكيره في موضوع هتلر ، وكانت وجهة نظره أن العقلية الالمانية صاحبة الامتياز الهائل في التنظيم والدقة والانضباط لم تستطع أن تكتشف وسيلة لاختضاع المعتقلين افضل من حرقهم في الافران ، فما بالك ونحن في بلد لا يعرف النظام ويعانى من الهرجلة والغوضى وضعف الضبط والربط لابد في مثل هذه الحالة أن تنطلق الاشاعات وتنتشر الاقاويل هنا وهناك ، وتتحول الحجة الى قبة ، وتتضخم المسائل ، ولا يعانى من هذا في نهاية الامر الا المساكين الذين تحملوا المسؤولية على اكتافهم من امثال زهدى وشوكت ، والغريب أن زهدى كان يتحدث عن هتلر وكأنه لم ينهزم ، ولم ينفذ أمره بسبب استخدامه الافران ، فمازال هتلر بالنسبة له ، هو هتلر العظيم ، الفوهرر الذى لا يقهر ، أما كيف يتمسك زهدى بهذه الآراء التى تحطمت تاريخيا ، فامر محير لا يستطيع تفسيره الا بجهله المطبق . وبعد أن حدثنى عن افتقاده للافران ، ذكر لى كيف أنه كان أسرع الحاضرين الى استعادة اترانه بعد موت الرجل الذى ساعده على ذلك ، أنه فوجئ بالانهيار الكامل الذى أصاب شوكت . فقد ظل يصرخ فى رجاله أن يرفعوا الجثة ، وهو مصر على ان الرجل مازال حيا ، وأنه يتجامل بالرقاد ، كان مغنيظا بائسا ، يتلهف



الى رؤية الرجل وقد وقف من جديد ، وكان يتلفت حوله غير مصدق .  
أن وحوشه المدربين يتراجعون فزعين مذعورين خوفا من جثة أكسبها  
الموت هيبه وحرمة . حتى أن الصراع نشب بين شوكت ووحوشه .  
فهو يصرخ فيهم : أوقفوه ، أعملوه ينهض . فيتقدمون نحو الجثة  
خائفين من صرخات شوكت ، ثم مايكاد الواحد منهم يمسك بالجثة ،  
فيجدها متصلة تجمدت الدماء عليها ، حتى ترتعش يده « وبهمس  
« الرجل خلص » ، فيجن شوكت ، ويشتمهم ويهجم عليهم ، يدفعهم  
نحو الجثة دون أن يقترب هو ، وتكرر المشهد ، فلم يعد هناك مفر من  
أن يتنبه زهدى الى خطورة الموقف ، وكان حازما ، فأمر الجنود بضرب  
حصار على بقية المساجين الذين كانوا فى مرحلة وجوم وذهول ، مما  
عطل قدرتهم على التظاهر برد فعل سريع ، وأصبحت الدقائق لها  
قيمتها ، فأصدر الأمر بادخال المساجين العنبر فورا ، وصاح فى  
نفس الوقت بأعلى صوته متعمدا أن يسمعه الى الجميع :

— أنقلوه الى المستشفى . .

وتقدم ثلاثة عساكر ، وحملوا الجثة ، وزهدى يتابعهم بصيحاته  
التي تعمد أن تكون مسهوعة ، طالبا من العساكر أن يعودوا بالرجل  
الى الزنزانة ، بعد أن يعالجه الطبيب . كانت مئات ألعين ترتقبه  
ومئات الأذان تنصت اليه ، وكل كلمة يقولها الآن ، سوف تسجل  
فيما بعد فى محاضر تحقيق . لابد أن يجهز الادلة التي تؤكد أن  
الرجل لم يمت امام أحد . بدليل أنه طلب نقله الى المستشفى لعلاج  
بدليل أنه أمر بعودته فورا الى الزنزانة بعد انتهاء العلاج . لماذا  
سقط ؟ آه . . لقد سقط لان نوبة أصابته . نوبة قلبية . كانت الادلة  
تتراحم فى رأس زهدى ، وكلها أدلة نفى لموت الرجل الذى مات ،  
لولا صراخ شوكت وانهيائه ، الذى فقد عقله تماما ، لانه لم يتحمل  
أن يموت الرجل قبل أن تثبت لشوكت انه ليس رجلا . مقلب نظيف  
لشربه شوكت وكانت فيه نهايته ، ولكنه من ناحية أخرى ساعد  
بتصرفاته الخرقاء على اقناع الآخرين بأن الرجل مازال حيا ، وامسك  
زهدى بيد شوكت وجذبه الى بعيد ، وقال له بلهجة حاسمة انه يجب  
أن يترك المكان فورا ، وان عليه أن ينتظره فى المكتب ، ونظر اليه  
شوكت فى هلع وقال مرتعدا :

— حاضر يا أفندم . .

وأسرع يفادر المكان . وفى دقائق كان الحوش خاليا الا من واحد  
من السجنائين كان يقوم بتنظيف الأرض من بقع الدماء ، ويجمع ماوقع

فى ساحة المصممة ، من ملابس وحطام نظارات . وطبعاً كان لابد من  
 تسوية الموقف بسرعة وقبل أن يطلع الفجر . تقرير من الطبيب الشرعى  
 بأن الرجل مات بالسكتة القلبية . وتشريح الجثة ، واثبات عدم وجود  
 كسور فى الجمجمة او الحوض ، يكفى أن يسجل التقرير بضم  
 سحجات ورضوض نجحت عن سقوط الرجل اثر اصابته بالسكتة  
 القلبية ، عملية ليس من السهل القيام بها ، ولكنها ممكنة ، ولقد  
 قام بها زهدى على أحسن وجه ، ويعترف بأنه كان قلقاً ، ولكنه لم  
 يفزع ، فمثل هذه الحوادث متوقعة ، وهى تحدث أحياناً ، وإن كان  
 غير مرغوب فيها ، والعرف السائد هو حماية من قام بالعملية ، والتكتم  
 عليها ، وأفضل أسلوب للتكتم ، هو أن تأخذ الاجراءات مجراها ،  
 المحاضر والاوراق والسجلات تستوفى ، بحيث يكون هناك تحقيق  
 جاهز تحت الطلب ، يشرح أسباب الوفاة ، وهذا هو المهم ، أن تحقيقاً  
 قد أجرى ، وانتهى الى نتيجة محدودة ، تؤكد أنه لم يحدث خرق  
 للقانون . ان الدولة لا تريد أن تفضح نفسها ، وهى تقدر أن الذى  
 اقدم عليه شوكت وزهدى ، كان من اجل تأكيد سلطتها ، وضد  
 أعدائها ، ولكن هذا لا يعنى الاعفاء من اللوم ، فالرؤساء لا يريدون  
 المواقف المحرجة ، هذا فضلاً عما فى حدوث الوفاة من دليل على عدم  
 الخبرة بفنون الضرب ، ويعتقد زهدى أن هذا الاتهام بعدم الخبرة ،  
 هو أخطر الاتهامات ، فهو أخطر من اتهامه بالشكليات كخسرق  
 القانون ، واستعمال القسوة ، وغير ذلك من الكلام الذى لا قيمة له  
 من الناحية العملية . أن الذى يعنيه فى المقام الاول ، هو « الحرفنة »  
 كما يقول ، ومقياسها بالنسبة له أن تضرب من تشاء وتفتك بمن  
 تشاء ، وتسوم أى واحد كل ألوان العذاب ، بل وتصل به فعلاً الى  
 حافة الموت ، ولكن دون أن يموت ، ودون أن تترك فى جسده آثاراً  
 فاضحة ، تشهد على الضرب والتعذيب . هذا هو الفن ، وهذا هو  
 مقياس الخبرة والكفاءة ، وماعدها من حديث عن حقوق السجين ،  
 والمعاملة الانسانية والقانون فكلام ساذج لا يصدقه الا السذج ، ولا  
 يعترف به أحد فى أى سجن من سجون العالم . كان زهدى يقول  
 فى انفعال : هل تصدق أنهم يعاملون المساجين فى أمريكا معاملة  
 انسانية . ثم يصدر شخيراً من انفه ، ثم يسألنى : وهل يحدث هذا  
 فى روسيا ؟ . ويصدر شخيراً أطول ، ثم يسألنى : هل يحدث هذا  
 فى نيام نيام ؟ ثم يصدر شخيراً غريباً .. ثم ختم شرحه قائلاً : حتى  
 فى المعتقل الذى أمده ربنا سبحانه وتعالى للكافرين المذنبين ، هل

يُعدمهم بالمعاملة الانسانية . هل قرأت وصف ما يلاقونه من عذاب ، واسياخ محمية ونيران تشويهم ، اذن لماذا نخدع انفسنا ، ونقول ان المساجين يجب ان يعاملوا معاملة انسانية .. هذا كلام ساذج ، وكل ما هو مطلوب ان تكون المعاملة بفن وحكمة . المطلوب هو ان تعذب لا ان تقتل . تماما مثلما يحدث في الجحيم ، تعذيب لا قتل . واختتم زهدى شرحه قائلا لى : هل فهمت يا استاذ ؟ .. لعلك تكون قد استفدت حتى تكفوا عن كتابة كلام أهبل عن المعاملة الانسانية للمذنبين ولقد تمت الاجراءات التى أعدها زهدى بسرعة ، ودفنت الجثة بغير جنازة ، ولم يسمح لاهل الرجل بمشاهدتها ، الا فى كفنها ، وكانت زوجة الرجل مدرسة فى روضة اطفال « ... » ، وكان الرجل مدرسا اول للمواد الاجتماعية بمدرسة : « ... » الثانوية ، وكانت المعلومات الواردة بالملف الخاص به ، تقول عنه ، انه فى التاسعة والاربعين من عمره ، وأنه اب لثلاثة اولاد كلهم ذكور ، اكبرهم « تو » الذى كان وقتها فى العاشرة من عمره . وكان الرجل عضوا بارزا فى اللجنة المركزية للتنظيم الشيوعى « ... » الذى يدعو الى الكفر والالحاد والفوضوية وينشر دعوة الاباحية التى تسمح بتبادل الأزواج لزوجاتهم ، وتبيح للرجل ان يقفز فوق اى امرأة أينما شاء فى الطريق العام ، او فى حديقة عامة ، واصحاب مثل هذه الدعوة مضرهم جهنم ، وما كانوا يلاقونه من عذاب على يد شوكت وفرقة ، ما هو الا ذرة او قطرة من محيط العذاب الذى سوف يحيق بهم فى الآخرة وقد بلغ من سفالة ذلك الرجل ، انه كان مستغلا ابنه « تو » وهو طفل فى ثقل الرسائل والاوراق بينه وبين زملائه فى التنظيم ، وكان اغلب نشاطهم موجها الى منطقة شبرا الخيمة ، ووسط تجمعات العمال ، وكانت كل تحركاتهم واسمائهم الحركية ومنشوراتهم وخططهم تقع أولا بأول بين ايدى الشرطة . لان من السهل ان تجد بين هؤلاء المنحليين من يبيع اصحابه مقابل قرشين . وبينهم من يقبل ان يدخل معوم السجن ليتجسس عليهم داخله ، انهم لا يستحقون اى عطف او شفقة ، ورغم ذلك كان لابد فى مواجهة الموت من اتخاذ اجراءات تكسر من حدة ردود الفعل ، كصرف اعانة للزوجة ، وطبعا لابد من التكفل بمصاريف الجنازة ، ثم وضع الاسرة تحت المراقبة الشديدة ، لمعرفة اتصالاتها ، وقطع الطريق على محاولات من اقلت من السجن استخدام الزوجة فى اثارة ضجة حول موت الرجل .

وقد خيل الى زهدى اول الامر انه استطاع انقاذ الموقف وتفادى

اية ضجة . وكان سروره كبيرا عندما عرف أن تقارير المراقبة تقول أن الاولاد في مدرسة « تو » يتحدثون عن والده كمجرم ، وجاء في أحد التقارير ان « تو » نفسه ، كان يشارك الاولاد في اتهام والده ، وأنه كان خجلا من واقعة القبض عليه وذهابه الى السجن ، وكان أحد المدرسين قد سأل أحد الاولاد الذين يخاطبون « تو » عن حالته بعد موت أبيه في السجن ، فقال الولد ان « تو » قال له أنه أستراح بموته ، وأن والده كان دائم الشجار مع أمه ، وكان « تو » واخوته ضحية لهذا الشجار . وكانت هذه هي كل المعلومات التي جمعها زهدى عن حياة الرجل بعد دفنه ، واكتفى بها ، وقد اطمأن الى أنها بشر بان كل شيء سوف يكون على مايرام . وكان اهتمام زهدى الأكبر منصرفا الى المعتقلين في السجن من ناحية ، وشوكت وفرقة من ناحية أخرى . فأما المعتقلون ، فقد قرر زهدى أن يغير سياسته معهم ، ولكن بالتدريج ، حتى لا يشعروا بأنه خائف منهم قرر ان يرشوهم تدريجيا ، بالسماح لهم بالسجائر . وبعض المجلات ، وغير ذلك من الاشياء التي يستطيع ان يسمح بها أو يمنعها عنهم وقتما شاء . وكان واثقا من نجاح خطته ، ولكن المتاعب بدأت يوم سمح بدخول الطعام الذي يرسله لهم اهلهم . فقد فوجيء بالاخبار تأتي اليه بانهم رفضوا قبول هذا الطعام واكتفوا بالقول المسوس الذي يقدمه لهم السجن ولم يصدق . فليس من المعقول ان يحرموا انفسهم مما جاء في الصواني والحل ، وذهب زهدى يتفقد الحال بنفسه ، وكانت هذه أول مرة يواجههم فيها منذ ليلة الحفلة . وسألهم وقد رسم على شفثيه ابتسامة بشوش ودود . لماذا لا ياكلون ، واذا بهم ينظرون اليه في صمت مرعب ، ولا أحد يجيب ، وفحص الطعام ، وامتدحه ، ومد يده ، وتذوقه امامهم ، مشجعا لهم على الاكل . كان مجرد رؤيته وهو يأكل كفيلا بأن تسيل اللعاب من افواههم . وقد لاحظ بالفعل أن أكثر من واحد ينظر اليه ويبلغ ريقه ، واذا بواحد منهم له وجه فأر ، عيناه جاحظتان من قصر النظر ، ولا بد انه كان يستخدم نظارة وتحطمت في الحفلة ، وقال له وجه الفأر :

— ان تأكل هذا الطعام ؟

قال زهدى :

— ولكن هذا ليس طعام السجن .. لقد جاء به اهلکم .. زوجتک .. أو أمک أو شقيقتک .. هي التي طبخته .. فما ذنبها ..

قال وجه الفار :

— ولماذا تسمح لنا به ..

قال زهدى ضابطا لأعصابه :

— وهل تريد منى أن أمتعه ..

فاذا بالولد يقول فى تحد :

— هذه رشوة لا نقبلها ..

قال زهدى متعجبا :

— أى رشوة .. تعنى ..

قال الولد محتدا :

— لو أكلنا هذا الطعام .. فنحن نأكل لحمة . ونشرب دمه .

وهنا انفجر آخر صارخا :

— نحن مستعدون للموت كما مات هو .

وصاح زهدى هادرا :

— أخرس يا كلب أنت وهو ..

ومنذ تلك اللحظة ، أدرك زهدى أن تعقيدات كثيرة سوف تحدث وأن علاج الموقف فى أحد أمرين لا ثالث لهما ، أما إفران هتلر ، وأبادتهم جميعا ، أو إخفاء هؤلاء الشهود فى مكان ناء قصى لا يعرفه مخلوق ، ولا يصل اليه الجن الأحمر .. وبما أن الإفران ليست متوافرة للأسف فقد لقي اقتراحه بإبعادهم الى معتقل فى الواحات ترحيبا كاملا .. والى هناك ساقوا كل شهود حوادث القتل والتعذيب فى هذه القضية ، وفى القضايا الأخرى ، بعضهم شيوعيون ، وبعضهم من الإخوان المسلمين ، وكانوا أكثر خطورة من الشيوعيين ، لأنهم مدربون على السلاح ، وأجسادهم قوية ، الواحد منهم كالحصان على عكس الشيوعيين ، المسلولين ، ولكن حدث قبل نقل المعتقلين من السجن الى الواحات ، أن تقدمت الى النيابة عشرات البلاغات تتهم شوكت وزهدى بقتل الرجل ، صاحب هذه البلاغات منشورات تصل الى كل المسؤولين فى خطابات عن طريق البريد ، وذات يوم وقبل نقل المعتقلين بأيام ، أبلغوا زهدى أن النيابة قادمة للتفتيش على السجن وأجراء تحقيق فى وفاة الرجل . واستعد زهدى للمناسبة فأخفى المعتقلين فى زنايات بعيدة يكسل المحققون عن الوصول إليها ، وأشرف على سير التفتيش وحركته ، بحيث يلتقى المحققون ببعض المسجونين الذين يشهدون بأن شيئا لم يحدث فى السجن فى ليلة رأس السنة الجديدة ، واستمع المحققون الى الشهود ، ودونوا الأقوال

واقفوا المحاضر وهموا بالانصراف ، وبينما هم فى الحوش ، اذا بنفس الولد اللعين ذى وجه الفار يتسلق نافذة الزنزانة ويصرخ بأعلى صوته :

— يا نيابة .. تعالوا اسمعوا اقوالى يا نيابة .. أنا اطالبكم بالتحقيق فى الجريمة التى ارتكبوها .. وشهدتها بعينى .. قتلوا « ... » امامى وامام رفاقى .

كيف عرف بان النيابة قادمة ؟ وكيف عرف بان هناك تحقيقا يجرى فى ذلك الوقت بالذات ؟ واضح أن الامر يستفحل ، وهناك من يتجسس على ادارة السجن وينقل اخبارهم الى المعتقلين . وهذا خطير ، فعندما تتشكك فى السجائين أو الضباط تتوقع أن يفلت الزمام فى أية لحظة ، ووقف رجال القانون ينصتون الى الصيحات ، وتجاهلت انى اسمع اى شئ . ولم تفلح الابتسامات ولا الثثرة باى كلام . ان رجال القانون تنقصهم المرونة فى مثل هذه المواقف .

وسأل رئيس المحققين :

— من أين يصدر هذا النداء ..

قال زهدى :

— اى نداء يا أفندم ؟

فاحمر وجه المحقق ، وقال فى غضب مكثوم :

— اذهب الى هناك ..

وتحرك زهدى ، وهو يتظاهر بعدم الاكتراث ، مرددا ان بعض المساجين تظهر لهم رؤى وخيالات تجعلهم اشبه بمرضى مستشفى المجاذيب .. فما كان من المحقق الا أن وقف ، وطلب منه ، ان يكلف احدا بالذهاب معه . وكان مغزى هذا الطلب واضحا ، أن يكون زهدى بعيدا عن مكان التحقيق ، حتى لا يؤثر بحضوره فى أقوال الصارخ الشاكى .

واتجهوا الى الزنزانة وسمعوا اقوال المعتقل ، وسجلوا فى محضر التحقيق كل شئ ، وكان خطأ فنيا آخر تورط فيه زهدى ، لو كان اتخذ احتياطاته كما يجب ، لما وقع هذا الحادث الذى يعنى مزيدا من الاحراج . ليست الافران الهلترية أفضل ، انها الضمان الوحيد امام حالة عدم الانضباط . التى تؤدى بالسجائين أو بعض الضباط الى افشاء الاسرار ، ومع ذلك فاجراء التحقيق شئ والوصول به الى نتيجة شئ آخر ، والذى تعرض للمحاكمة التأديبية هو شوكت ، وقد تقرر فصله من الخدمة . وكان خروجه لخسارة كبيرة لا تعوض ،

فهو رغم كل شيء كفاءة نادرة فى التنظيم والتدريب ، وقد وقع عليه قرار الفصل كالصاعقة ، ولكنه استطاع أن يتماسك ، وتلقفه شيخ صاحب ملايين ، يعيش بملايينه حياة أبى نواس ، واستطاع شوكت معه ، أن يعمل فى الاستيراد والتصدير وعاش فى جنيف ، كملك يركب أحدث عربات المرسيدس ، والبويك . وقد قابلته زهدى فى مطار روما اثناء رحلة قام بها الى الخارج ، فقال له أنه يصرف فى اليوم الواحد أكثر من مائة جنيه ، ومع ذلك فهو يشعر بمرارة ويفتقد حياته مع فرقته وشهرته وهيلمانه فى السجن . وهذه الرحلة بالذات لها قصة جاء أوانها ، كان زهدى عضواً فى وفد ذهب الى « ... » لحضور مؤتمر دولى عن السجن ، وهناك ، استدرجوه الى ندوة ، ذهب اليها بحسن نية ، ودخل قاعة مزدحمة بحوالى ألف شخص ، وأجلسوه مع آخرين فى المنصة حول مائدة عليها الميكروفونات ، والتف حولهم المصورون يلتقطون لهم صوراً فوتوغرافية وسينمائية وتليفزيونية ، وكان المفروض أن يتحدث كل واحد من الجالسين على المنصة ، وهم من جنسيات مختلفة ، عن تطوير نظام السجن فى بلده . وكان زهدى قد أعد بحثاً قصيراً مناسباً لا يتعدى القاؤه باللغة الانجليزية عشر دقائق ثم يترجم الى لغة البلد فى عشر دقائق أخرى . وافتتح رئيس الندوة الجلسة وألقى بضع كلمات لم يفهمها زهدى ، ولكن اسماً عربياً سمعه ، نطقه المتحدث ، فارتطم بأذن زهدى ، كان اسم الرجل الذى مات فى السجن فى تلك الليلة المشهودة . وقبل أن يفيق زهدى من المفاجأة ، اذ بالجميع : من يجلسون على المنصة ، والآلاف الذين يجلسون فى القاعة كلهم يقف صامتا ، ما الذى يجرى ما الذى حدث .. انهم يقفون حداداً ، هكذا يقول المترجم . حداداً على روح شهيد الطبقة العاملة الذى استشهد فى السجن المصرية .. ووجد زهدى نفسه يقف مع هذا الجمع الفقير وقد ساد بينهم الصمت ، وكانهم جميعاً يتفلسفون بنظراتهم ويلفحونه بأنفاسهم الحارقة . سئخت رأسه ، وبذل جهداً خارقاً ليبدو وكأن شيئاً لم يحدث ولا يدرى كيف قرأ بحثه ، ولا كيف انفضت الندوة .. وكان بعض زملائه جالسين فى القاعة ، فانضموا اليه ، وتخلصوا من المترجم المصاحب لهم ، وعادوا الى الفندق مسرعين يتداولون الامر . هل أخطأ زهدى بالوقوف ؟ هل كان يجدر به الانسحاب ؟ ما الهدف من هذا المقلب الخبيث ؟ قالوا كلاماً كثيراً ، وزهدى يستمع اليهم مستسلماً وقد أزهقه الموقف فلم

بعد قادرا على الكلام أو الانفعال أو عمل أى شيء ، كان كل ما يحس به رغبة فى القىء تجمى وتذهب ، ولا يستطيع أن ينهض متوجها إلى دورة المياه ليفرغ مافى جوفه . حتى هبط عليهم وهم جالسون فى بهو الفندق ، أخذ رجال السفارة المصرية ، وطلب منهم أن يذهبوا معه فوراً للقاء السفير ، وبدأت الحياة تدب فى جسد زهدى من جديد ، وجلس بجوار رجل السفارة الذى كان يقود السيارة بنفسه ، وانطلق يشتم ويسب هذه الأفعال الشريرة التى ارتكبها هؤلاء الأوغاد الملاحدة . لابد من الاحتجاج لابد من الاعتذار لابد من مفادرة الوفد لهذا البلد فوراً ، مثل هذا الحادث جزاؤه قطع العلاقات الدبلوماسية فى الحال . كان حماس زهدى يزداد اشتعالاً وتهياباً ، وزملاؤه يشجعونه ورجل السفارة يؤكد له أن ما حدث ستكون له أواخر العواقب حتى دخلوا على السفير الذى كان ينتظرهم فى قاعة فخمة واسعة بالسفارة . وما كاد يرى وجوههم المحتقنة ويسمع كلماتهم الملتهبة . حتى بدا عليه الانزعاج . وإذا به يقول لهم فى لهجة حاسمة آخر ما كان يتوقعه زهدى . . أنتم لا تعرفون سياسة بلدكم . . انى أحذرکم من إثارة أى ضجة من أى نوع .

— لا احتجاج ولا انسحاب . .

والتفت السفير إلى زهدى وقال له :

— ان تصرفك كان عظيماً . . عندما وقفت حدادا على الرجل

الذى مات .

انهم يعتبرونه شهيداً ، وليس لدينا مانع فقد كان ماركسيا

مثلهم .

ووقع فى يد زهدى ، بينما قال زميل له فى الوفد :

— ولكننا يا سيادة السفير لسنا ماركسيين . .

قال السفير فى هدوء :

— طبعاً . . ولكن هذا لا يمنع من أن تكون أصدقاء . .

صاح الرجل :

— انهم يتهموننا بقتله .

قال السفير بلهجة باردة خالية من أى انفعال :

— فى كل مكان فى العالم تحدث مثل هذه الأخطاء .

فى تلك اللحظة ، عرفت زهدى أن نهايته قد اقتربت ، ولزم الصمت ، ولم يعبأ بما يقدمه السفير من شرح وتحليل سياسى ، حتى عندما قال السفير . . أن كل هؤلاء المعتقلين فى الواحات سوف



بفرج عنهم .. قابل زهدى الخبر بعدم اكتراث . عرف انها شهيرة ويخرج محالا الى المعاش .. وتذكر لقاء الصدفة الذي كان بينه وبين شوكت فى مطار روما وهو فى طريقه الى ذلك البلد . هل يمر على شوكت فى جنيف اثناء عودته . ويسأله ان يشرحه معه فى أعماله ، ولكنه لا يستطيع ان يترك وحيد حسن ، الافضل ان يركز جهوده فى ارضه بكفر الدوار . ويعيش فى الاسكندرية ، ويصرف جهوده فى الاعداد لمستقبل ابنه الوحيد . اقسم زهدى . انه رأى كل هذا المستقبل ، وهو جالس فى تلك القاعة الفخمة التى استقبلهم فيها السفير . رأى كل شيء كما حدث تماما . ولكنه لحظتها لم يرهجرة ابنه حسن ، ولم يره لقاءه بتو . وبعد ان خرجوا من السفارة ، تحول زهدى الى شخص آخر ، كان لا يثق فى شيء ، واثارت شكوكه حول ما قد يحدث له من ورطات ومقالب أخرى ، وكان يتلفت حوله فيخيل اليه ان الجميع يراقبونه ويعرفونه ، فخاف على نفسه ، ورأوده الافكار عن احتمال اختطافه ، أو الاعتداء عليه ، ولكنه لم يفصح عن شعوره هذا لأحد . كان يعلق على نفسه باب حجرته فى الفندق بالفتاح والترباس ، ويحكم اغلاق التوافل فيشعر بالاختناق ويتصل بزملائه فى الحجرات المجاورة .. ويوقظ من نام .. وقد يذهب الى حجرة واحد منهم ويظل يثرثر معه حتى الصباح . يقول أى كلام فارغ ، أى شيء ، ويسب نفسه ، وصاحبه ويروى تكتا جنسية ، يقول أى شيء لا يؤخذ عليه كموقف سياسى ، ولم يتخلص من هذا الكابوس بعودته الى مصر ، فقد بدأت الرؤى التى تكشفت له ، وهو مع السفير ، تتحقق الواحدة تلو الاخرى ، تغيرت سياسة البلد ، وتغيرت المناصب ، والذين كانوا يحمونه بالامس تخلفوا عنه ، وبدأوا يتحدثون بلغة أخرى ، كلها من نوع السجع الاشتراكي الشيوعي التقدمي الى آخر هذا الكلام الذى يقول زهدى انى أعرفه جيدا وانا جر به فى سوق الصحافة . وجاء اليوم الذى صدر فيه بالفعل قرار احواله على المعاش ، وقال لنفسه مواسيا ان آخر خدمة الغز علقه . وانه دائما يوجد الغز ويوجد من يخدمهم ، وتنتهى الخدمة فى كل الاحوال ، وفى كل زمان ومكان وتحت أى ظروف بالعلقة . وكان خروج زهدى الى المعاش أيدانا بخروج المعتقلين والافراج عنهم بعد شهرين ..

وهنا تشنج زهدى وهو يسألنى :

- بماذا تفسر خروج هؤلاء الدين ائمتناهم بالتخريب والتدمير  
والارهاب والهدم ، ماذا تفسر اعطاءهم المناصب والمراكز .. ماذا  
تفسر انهم يهللون لنفس السلطة التي اعتقلتهم ..  
قلت له : هذه هي السياسة ..

فصاح :

- ملعون أبو السياسة ..

ثم سألني بحرقه :

- ولماذا لم يضربوا عن المناصب .. كما اضربوا عن الطعام الذي  
أرسله لهم أهلهم في السجن .. لماذا قالوا لا نأكل هذا الطعام لانه  
لحم القتيل ودمه .. ولم يقولوا لا نجلس على مقعد هذا المنصب أو  
ذاك .. لانه من عظام صاحبنا القتيل .

وجدتني أقول له وأنا لا أعى ما أقول :

- ربما كانت الإجابة على سؤالك عند تو ..

فسألني في دهشة :

- ماذا تعنى ؟

قلت له :

- لا أعرف ، ولكنك سوف تساعدني ، لو قلت لى كيف عرفت  
تو .. فهم قبلوا المناصب وهذا فى رأيك غريب .. وانت تقول أنك  
تبنيت تو وهذا فى رأيي أقرب ..

## الفصل السابع

### « تو » أو السياسة

هنا وصلنا إلى مفترق طرق ، زهدى يريد أن يشدني إلى الحديث عما يدور في البلد من تقلبات سياسية ، يريد أن يفهم ، أو كما قال لي فيما بعد ، « أريد أن أتأقلم » أما أنا فتكنت مصمما على أن اسمع منه بقية قصة « تو » ، لقد حدث بيني وبين زهدى شدا وجذب حول هذين المحورين ، السياسة ، وحكاية تو ، وأعترف أنني لم أدرك معنى هذا الشدا والجذب ساعة حدوثه . ولكن المعنى واضح لي تماما وأنا أسجل خواطري ومعلوماتي في هذه اللحظة على الورق . ويخيل إلى أنني سأفهم أكثر دوافع زهدى لو تذكرت بدقة كيف جرى الحوار بيني وبينه ، وأهم من ذلك ، لعلى اكتشف بعض ما في نفسي من غموض أقرب إلى التشويه ، أحدثته تلك المخاوف التي أثارها اعترافات زهدى عن مقتل والد « تو » فبعد أن أسجل كل شيء ، يجب أن أجيب على سؤال أوجهه إلى نفسي . . هل أنت جبان ، هل أنت تعيش في مجتمع بلدك وتعامل مع الآخرين وتكتب لهم وانت متحكوم بالمخاوف والوان الدعر . هل أنا اتشبك بحكاية « تو » لأهرب من حكايات السلطة والسياسة بأهوالها وجبروتها ، أنني اكتب هذه الأوراق لنفسي ولن يطلع عليها أحد ، فعلى الأقل يجب أن أكون صريحا إلى أقصى حد في هذه اللحظات بالذات . وإذا لم أفعل ، فما فائدة كل هذه المعاناة ، وأرجع الآن إلى زهدى ، وأذكره وهو يقاطعني محتجا ، يسألني لماذا تهتم بـ « تو » إلى هذا الحد . لماذا تشكك في تصرف إنساني أقدمت عليه عندما قدمت له المساعدة والرعاية ؟ أقرب في نظرك أن ألبى دعوة الشبهة والمروءة ، هل أصبح كل شيء في الدنيا يقاس بمقاييس الانانية والندالة ؟ أنا لست ياسيدي وحشا ضاربا ، أنا فلاح عريق من عائلة عريقة ، وإذا كانت دواعي العمل قد اقتضت أن أقوم بعملية يقتل فيها رجل ، فليس معنى ذلك أنني غليظ

القلب ، أريد أن افتك بكل الناس ، ثم ماهذا الذى قمت به من أجل هو ، مجرد وظيفة صغيرة حصل عليها فى النادي ، أهم منها ، هو شعوره بأن له ظهرا يحميه ، بل يتبناه . ولقد فعلت كل هذا لوجه الله ، صدقتى أنه معروف صنعته وقدفت به فى البحر . ولا بد أن أسجل ، أن زهدى توقف هنا عن الكلام وكأنه يريد أن تراجع نفسه فيما قاله . ثم عاد يقول لدهشتى :

— فى الحقيقة أنا قدفت بهذا المعروف قلى صفيحة زبالة .

ولم أنهم ساعتها سر هذا التعديل الذى بدا له أنه ضرورى ، فما الفرق بين أن يقول أنه قدف بالمعروف فى البحر ، أو فى صفيحة زبالة ، ولماذا يتحول البحر فى خياله الى قمامة ، ولم يترك لى زهدى فرصة لتحليل أسلوبه ، فقد انطلق يدافع عن نفسه . وكأنى أنهم بمساعدة « . . . » فجعل يردد أنه لن يستفيد شيئا من وراء « تو » لا شيء على الإطلاق .

وكان زهدى يتحدث بلهجة عاطفية ، صوته يتهدج أحيانا ، ويدها ترتعشان من الانفعال ، ولم تقنعنى هذه الحالة العاطفية ، كنت أقرب الى الظن أنه نصاب كبير يؤدى دورا غير متقن فى عملية احتيال كبيرة ، كان صوته قد ارتفع . . وتحول من الحديث الى الخطابة ، وتحولت أنا المستمع الوحيد الى ما يشبه الجميع الفقير . وكان ينظر أمامه وفى عينيه أعجاب بنفسه ، حتى خيل الى أنه يتأمل ملامح وجهه فى مرآة يتوهم وجودها أمامه . قلت لنفسى ، ماذا وراءك يا زهدى ما الذى تحاول إخفاءه عني ، أو عن نفسك ، وبدأ صبرى يتفد ، فلم أعد أطيق استمرار الخطبة ، فلما ابتسم لى ، يدعونى الى أن أقول له كلمات أعجاب أو اعتراف بتصرفه الإخلاقي العظيم كان أشبه بالمثل الذى ينحنى للجماهير وهو واثق من أنها سوف تصفق له بحرارة وأعجاب ، وعندئذ شعرت بنفور حاد منه ، رقم أن كل كلمة قالها ، كانت نقيض بالمعاني السامية ، وتؤكد القيم النبيلة فى حياة الإنسان . ووجدتني أقول له فى عصبية لا تخلو من سخريه انى كرجل حرفته آداب ، ترهقنى الصيغ الانشائية ، والكلمات الكبيرة ، مثل الشهامه والمروءة والنبل والانسانية الى آخر هذه الكلمات الضخمة ، وكان يستمع الى فى غير فهم ، فاضفت قائلا انى كنت اسمع منذ قليل اعترافه التفصيلي بإشرافه على عملية قتل والد « تو » فلو كان يعرف حقيقة المعانى الضخمة التى يتحدث عنها ،

لتردد طويلا ، قيل أن يحدثني على هذا النحو عن اليتيم الذي كان هو نفسه سببا في يتيمة .

وتوقعت أن يثور زهدي ، فقد بدت عليه علامات التنبيه لما أقول ، وأوشكت أن اسمع سيل الشتائم البديئة التي سيقدقني بها ، ولكنه استمر يستمع الى في بلادة وقد فغر فاه ، وللحظة خاطفة خيل الى انه قلق ، وأنه يشعر بضعف ، وسرت في جسدي رعدة ، كاني أرى ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة ، ان هذا القلق الذي مر كالشهاب في عينيه ثم اختفى ، كان يعلن عن وجود انسان في هذا الكيان أو الجسد المذمى والمتداعى الجالس أمامي .

أ يكون هناك احتمال للقاء حقيقي بيني وبين هذا الرجل ، لقاء انسان بضعفه وقلقه ومخلوفه ، مع انسان آخر بضعفه وقلقه ومخاوفه . هل هناك شيء آخر حقيقي خلف هذه الواجهة التي اسمها اللواء زهدي ، والتي أناديا أحيانا عندما اداعبه هاتفا . . يا جنرال . . كيف أمسك بهذا الشهاب الذي لمحتة في عينيه ؟ أم هو الوهم الذي جعلني أرى ذلك الشهاب . وزادت دهشتي وأنا أرى زهدي يميل برأسه نحوي ، وقد تقدم بجسده الى حافة المقعد الذي يجلس عليه ، مطرقا بأذنيه ، يريد أن يسمع مني المزيد .

وما الذي فعلته في تلك اللحظة ، لقد ارتبكت ، وخفت ، وتحولت مشاعري فجأة من تقيض الى تقيض ، همست مخاوفي ، هذا الرجل يريد أن يستدرجك لأمر ما ، ألزم الحذر ولا تندفع معه في الكلام ، وأنت على أي حال جئت لتسمع لا لتتكلم ، وإذا بي أقول لزهدى معتذرا له عما بدر مني ؟  
- آسف يا زهدي بك .

فنظر الى نظرة طويلة وأهنة ، وقال وقد ارتسمت على شفاهه ابتسامة هادئة وأدعة أنه كان يريد أن يسمع رأيي ، كان يتحدث ببطء ، بلهجة فيها تفكير ومعاناة . لهجة تختلف تماما عن اللهجة المسرحية الخطابية التي كان يتعامل بها معي منذ قليل .

أصبح صوته خافتا ممطوظا ، وهو يحدثني عن أهمية هذه الجلسة بالنسبة له . فهي جلسة أصدقاء من نوع نادر ، قد أتاح له وجودي فرصة الحديث في موضوعات لا يستطيع أن يتحدث فيها مع كل الناس ، وهو وأثق من رأيي في نسبة الأصدقاء في النادي ، كلها كلام فارغ ، وضياع وقت . أنها في الحقيقة ضياع عمر .

وكم كان يتمنى مثل هذه الجلسة منذ زمن طويل ، يتحدث ويتفاهم حول الأمور الهامة في الحياة ، فقلت له انى وافقه تماما ، بل انى سعيد بسماع ما يقوله ، واننا وصلنا الان الى ما يشبه مفترق طرق . وبهمنى جدا ان ابادله الراى فى شىء يهمنى بالدرجة الاولى وهو حقيقة مشاعره نحو « تو » ، واسرعت اقول له ، انى لا اتهمه ، ولا ألومه ، ولا احاكمه ، فليس هذا مقصدى ، كل ما اريده هو ان اعرف .

فتجاهل زهدي كل كلمة قلتها ، وكأنه لم يستمعنى ، بل انا واثق انه لم يفهمنى ، لانه مضى يتحدث عن الشلة التى مجتمع فى النادى ، شكرى السفير ، ورووف مدير البنك ، وسعفان رئيس مجلس الادارة وقيرهم وقيرهم ، كلهم يا استاذى الفاضل طاقات معطلة ، احوالها الى الاستبداد او المعاش ، وكان من الممكن ان تغيد البلد بهذه الخبرات العظيمة ، واذا كانت السلطة قد اخطأت وقرطت فيها ، فلماذا تخلىء نحن فى حق انفسنا ونضيع وقتنا فى الكلام الفاضى والهلس ..

كنت استمع اليه وهو يتبعنى عنى ويوشك ان يتوه فى ضباب بعيد ، وعجبت لعضوه وهو يعود الى الارتفاع ، واللهجة الخطابية تستولى عليه من جديد ، وبلغت ذروتها ، وهو يهتف امام الجماهير التى هى انا . وينظر فى المرأة الوهمية التى يتأملها معجبا بنفسه ، قائلا : اعترف انى مسئول عن جلسات الهلس .. انا الذى جعلتكم تستسلمون لما انتم فيه من ضياع . ولكن هل هذه هى حقيقة زهدي .. ابدا .. وهل انا مرتاح لسلوكنا هذا ، مستحيل .. ونحن الان نستطيع ان نفعل شيئا .. فلكر معى فى كل هذه الرؤوس الكبيرة التى تجتمع فى النادى ، لتتبادل الشنائم وتلعب البريدج ، ماذا يحدث لو تجمعنا ، ووضعنا ايدينا فى ايدي بعضنا بعضا ، وقصارت رؤوسنا ، وكان لنا راي فيما يحدث فى البلد ، اقسام لك ان حالنا سوف يتغير وسيكون لنا كيان ونفوذ ، ويعملون لنا ألف حساب ، لا تستهن بهذه الكفاءات المتقاعد .. اليس هذا رايك ؟

كان قد قناب عنى تماما ، وكنت أفكر بسرعة متحمومة فى حقيقة نواياه ، وكنت لم اتبين بعد ، ما أدركه الان ، عن هذا الشد والجذب الذى كان بيننا حول السياسة من ناحية و « تو » من ناحية اخرى .

وقلت له مرتبكا :

— هذا يعنى أن نتحول الى حزب ، وينتهى بنا الامر الى حفلة من حفلاتك اياها فى السجن .. فهل انت مستعد لهذا يا زهدى بك ..

فهر رأسه مستنگرا وقال :

— ماهذا الذى تقوله .. المسألة لا تحتاج لحزب ولا يحزنون ، انت لا تفهمنى .. كل ما هو مطلوب يا أخى هو أن نجتمع مالنا من علاقات وصلات هنا وهناك .. وأن نتحرك معا .. نحن فى حاجة الى علاقات عامة .. هل تعرف أن أى مشروع كبير فى أمريكا يخصصون نصف ميزانيته للعلاقات العامة .. مثلا .. أنت تكتب فى الصحف .. وتستطيع طبعا أن تكتب مقالات عن الطاقات المعطلة أمثالنا .. انا شخصيا مستعد أن اكتب لك سلسلة مقالات فيها دراسة عظيمة عن مفهوم الامن فى مجتمعنا ، وهكذا تظهر فى الصورة .. ويكون لنا دور .. ولا يضيع عمرنا فى النادى والبريدج .

كان اقتراحه مفاجأة لى ، فلم اتوقع أن يتحول هذا الرجل البدئ السليط اللسان ، الذى يتزعم جلسات النكات الجنسية ، ولا يستريح الا اذا خلت جلسة النادى من النساء ، ليتأوه ، ويصدر أبشع الاصوات ، يتحول هذا الرجل ، الى داعية لنشاط . ماذا اسميه ؟ جميع قوة نفوذ . او خلق نواة لمرکز قوة كما نقول بلغة السياسة .

قلت له :

— الفكرة عظيمة ، ولكنى لن اتوسط لنشر مقال واحد لك ، قبل أن تحدثنى عما أريد أن أعرفه .

ومرة أخرى ، خيل الى انى لمحت شهاب القلق يمرق فى عينيه ، وقال بصوت يخلو من حماسه المعتاد عندما يسب ويشتتم .

— يخرب بيتك .. هيه حكاية الدبابة .

قلت فى اصرار بليد :

— عرفت منك أنك قتلت الاب .. وسمعتك تقول انك كنت شهما ذا مروءة فتبنت الان .. وهذا شيء مشير بالنسبة لى .. اريد ان أعرفك تفاصيله .

فهمت وقد عاود لهجته المسرحية :

— لا .. ياسيدى .. هذه باشكاه ، وهذه باشكاه .

ثم أردف يشرح لى ، وقد أدرك انى لم أفهم .

— موضوع الاب شيء .. وموضوع الابن شيء آخر .  
قلت :

— هناك صفة بينهما .  
هتف فى ثقة :

— قطعاً لا .. هذا عمل اؤديه .. وأنفذ فيه الاوامر مهما كانت  
نتائجه .. وذلك عمل اقوم به بمحض ارادتي .. لقد قلت لك هذا  
الف مرة .. فاعتقنى يا اخى .. حتى تفرغ للكلام المهم .  
قلت له :

— ان ما اتحدث فيه مهم جداً بالنسبة لى ..  
وفتح فمه ، فاسرعت بالكلام رافعاً صوتى ، اكاد اتخذ نفس  
اللهجة الخطابية .

— اذا كنت تريد ان تتفاهم معى ، فيجب ان يكون تفاهمنا كاملاً  
ان موضوع « تو » هذا لايعنينى فى شيء .. واقسم لك انى لااعرف  
حتى الان ما الذى جعلنى اسالك عنه .. افه شيء خرج من الهواء  
من العدم .. وأول شيء جاد سمعته ، هو مآرويته لى انت عن والده  
.. ولست ادري لماذا لا تشغلنى هذه القصة الان — بقدر ماتشلفنى  
صلتك انت بالولد — بصراحة اريد ان اعرف ، هل انت تساعد « تو »  
لشغف عن شعور بالذنب .

صرخ زهدى :  
— اى ذنب يا استاذ .. هذا آخر ماكنت أتصور صدوره عن  
رجل عاقل مثلك .

وانهال على هذه المرة بشتائه البذيئة ، ولكن رعشة فى صوته  
كانت تفضح ذلك القلق الذى يعانى منه . أنها ليست نفس اللهجة  
غير المبالية الوقحة الواثقة التى يطلق بها شتائه فى النادى . هذه  
شتائم دفاع ، لا شتائم هجوم .

وواجهته بابتسامة عريضة وقلت له :  
— اشم كما تشاء ..

هتف متظاهراً بعدم الفهم :  
— ما الذى تريده بالضبط .. ماهو هدفك ؟  
قلت بسرعة :

— ولماذا حكيت لى ما حكيت ؟  
— لانى كنت اريد ان ادخل معك فى الموضوع .. سالتنى عن تو  
.. فحكيت لك عن ابيه والشيوعية .. والمصائب التى حدثت لى



والبلد . وبدانا نتفاهم .

قلت بغير تفكير :

- الموضوع يستحق ان اكتب عنه رواية .

قال :

- اعرف هذا ..

قلت :

- ولذلك اريد منك تفاصيل اكثر .. هل تذكر يوم جئت لزيارتك في هذا البيت لأول مرة .. يوم سفر حسن الى كندا .. ألم أحدثك عن الصلة بين رجل الشرطة . وكاتب الرواية .. وكيف أن كليهما يهتم بالتفاصيل الدقيقة ماخفي منها وماظهر .. التفاصيل يا جنرال أرجوك .. التفاصيل لا هذا الكلام عن الشهامة والمروءة .  
تململ زهدى على مقعده وقال :

- رغم أنك خبيت ظني فيك .. إلا اني سأحكي لك كل ماتريد ، سأكون صادقا معك .

وأطرق برهة .. كأنه يتذكر نحيبا ، ورفع رأسه وقد رسم على شفتيه ابتسامة خفيفة مريبة . ومضى يقول أنه سمعنى الآن ، وأنا أذكر ابنه حسن ، وهذا التذكر يشعره بالوحشة والحنين الى ابنه ، ويعترف لى بهذه المناسبة ان المعروث الذى صنعه لثو ، كان له مقابل لم يطلبه من أحد ، ولكنه طلب من الله سبحانه وتعالى ، منه هسو وحده ولا أحد غيره ، طلب من الله ان يضع فى طريق ابنه الذى فى القرية ، رجلا يمدون له يد العون والمساعدة مثلما فعل هو مع تو . وهذا طلب لا يستطيع أحد ان ينكره عليه ، من حقه ان يفكر فى ابنه ومن حقه ان يعامل الله بما يرضيه ، وهو يتوقع ان يرد له الله الثواب مضاعفا لابنه .. صدقنى أنا مشتاق اليه . وأحيانا تنتابنى الهواجس السوداء ، وأفكر فى انى سأموت قبل ان اراه ، وأتعذب ، ولا أطيع نفسى ، وأحيانا تراودنى فكرة تلج على أن أذهب اليه فى كندا وأتوسل اليه . ان يعود ، فمن يدري ، قد يكون فى حالة سيئة . او يتصور جوعا ولكنه عنيد لا يريد أن يعترف بالهزيمة ويعود الى أبيه .. ثم هذه الارض ، لن يتركها ، ومن يرثها ، أحيانا تخطر له أفكار جنونية ، ان يتزوج وينجب ولدا آخر ويتخلى عن هذا الولد الاحمق الذى هجره .

لقد صارح السفير شكرى منصور بهذا الخاطر عندما زاره فى بيته ، وقد نشأت بينهما علاقة خاصة لما يعانیه كلاهما من ولدبهما ،

حسن هاجر ، ويسرى لا يتورع عن ضرب أبيه .. وزهدى يقول لشكرى ، ليت حسن بقى وضربنى . وشكرى يقول لزهدى ليت يسرى هاجر أو مات ولم يرفع يده على . ولما سمع شكرى بالأفكار التى تراود صديقه زهدى عن الزواج ، حبلده قائلاً : أياك أن تفعلها يا مجنون ، نحن فى سن لا نشعر فيه بالرغبة نحو المرأة ، لانسا أصحاب ، ان الذى يحرك رغباتنا هو التهاب البروستاتا ، ولو تزوجت يازهدى فسيفضى عليك للالتهاب وتموت فى ستة شهور .

وضحك زهدى قائلاً :

— هل هذا يعجبك فى الرواية ؟

قلت له :

— كل ما قوله يعجبنى .. ولكن .. لا تعجب اذا عدت وسألتك .. ألم تشعر حقا بأى رغبة فى مساعدة تو للخلاص من الشهور بالذنب ..

فهن رأسه ناظراً .. وردد :

— أبدا .. أبدا ..

سألته فيما يشبه التوسل :

— ساعدنى وتكن ..

ولمحت لفرحتى شهاب القلق فى عينيه ، وسمعت صوته هادئاً خافتاً .

يشرح لى أن الامر ليس كما أريد أن اصوره . ولكنه عندما وجد « تو » أمامه لم يتمالك أن يقول لنفسه . هاهى الاقدار قد أرسلت هذا الولد بالذات لتمدحنى فى أبنى حسن . وسكت ناظراً الى فى استسلام يشجعنى على أن أسأله .

فسألته :

— كيف التقيت به ؟

فتح فيه ليحبيبه ثم أغلقه ، وقد ظهر عليه ارتباك واضح ، هاهو لأول مرة يفتح القلق والضعف .. يطفحان الى السطح .. وكان سغولاً بمحاولة ترتيب الحكاية وتفاصيلها على النحو الذى يريد أن يصوره لى ، وبعد ان استقر الى صورة معينة ، قدمها لى على النحو التالى .

قابل منيرة بيجو ذات ليلة ، وكانت واقفة عند باب شقتها ، ويبدو انها كانت تترقب مجيئه من النافذة . فلما رآته قادماً أسرع الى

باب شقتها وفتحته ، وقابلته بلهفة غير عادية .. وسألته أن يدخل عندها لتحدثه في أمر يهمها . أنه أمر كثيراً ما يحدث ، وهي تعتمد على مشورته فيما بينها وبين شرطة الآداب من صلات ، لأنها تقدم لهم الكثير من المعلومات مقابل التساهل معها في حدود ، وهذا أمر معترف به ، ولا مفر منه لتنفيذ آعين الشرطة الى عالم الدعارة والمومسات .

وفوجيء زهدى بوجود شاب من نوع « الهيبى » فى صالة بيت منيرة . مخلوق منفر قدر ، أن زهدى يشعر شخصيا بالقرف من هؤلاء الأولاد الهيبى . بصراحة لا يطيقهم ، ولو تركوه يتصرف على حريته لإبادهم سحقا ، لأنهم فى نظره أبشع وأوسخ من الصراصير والبق . اهانة للرجولة ، وكان طبيعيا أن يتأفف زهدى من وجود الولد ، ولم يخطر بباله أن منيرة سوف تتحدث معه فى الموضوع الهام الذى يشغلها أمام هذه الحشرة ، واسوأ من هذا ، أن الولد الحشرة ظل جالسنا مكانه منكوش الشعر بقميصه المزركى يهرش شعره ، دون أن يكلف نفسه الوقوف احتراماً للرجل الذى دخل . وهو لابد يعلم من منيرة ، من هو . وما يكون مقامه .

وفوجيء زهدى بمنيرة بيجو تشير الى هذا الهيبى ، وتساله أن يساعده فى البحث عن عمل ، ارتفع الدم فى رأس زهدى ، وكاد يضرب منيرة ، لولا أن تماسك ، وصاح هادرا فيها ، أنها جنت ، اذ تجرؤ على مثل هذا الطلب ، اذ كيف يخطر ببالها أن يساعدها هذا الحيوان الحقير الشاذ الذى لم يكلف نفسه مجرد عناء الوقوف احتراماً له .

وهنا انتفضت الحشرة واقفة ، وتلعثم بكلام غير مفهوم زاد زهدى حنقا ونفورا منه . وقالت منيرة أنه يقول أنه وقف عند دخوله ثم جلس فصرخ زهدى ، ومن آذن له بالجلوس ظالما أن سيده واقف . ولعن سنسفيل جدوده ، وقال لمنيرة ، أنه لا يعرف أصحاب المواخر التى تستعمل أمثال هؤلاء الشواذ المنحرفين ، وأنها اذا كانت تستخدم أمثاله لاستعمال زبائنها ، فسوف يقطع صلته بها ، وسوف تنفى معاملة الشرطة لها . وسوف تعود الى السجن مرة أخرى أو على الأقل سوف يطردها من هذا البيت .

ويعترف زهدى بأعجابه بمنيرة فى هذا الموقف .

المرأة تحملت كلامى فى هدوء كامل . امرأة واعية قادرة ، لا تهتز بسهولة أمام أى تهديد رغم أنها واثقة من قدرة زهدى على تنفيذه ،

كل ما فعلته ، هو أن انحنت وخلعت شبيبتها ، وتقدمت في هدوء بجسمها الضخم ، وانهارت عليه ضرباً ، والولد ساكت لا يتحرك ، يكتفى بإطراقة من رأسه الضخم ، متلقياً ضربات الشبشب في أذنان واستسلام ، ولاحظ زهدى أن ضربات منيرة ، ليست بالعنف الذي يوهم به شتائمها ، كانت تضربه بحنية ، والولد الحقيق يكاد يخفى ابتسامة ، وأخيراً التفتت منيرة إلى زهدى وقالت له أنها ضربته وأدبته بما فيه الكفاية . ولكن ما حيلتها وهذا المغفل يحتاج إلى مساعدة ، ثم اندفعت تنحنى على يد زهدى تقبلها وتتوسل إليه أن يغفر للولد غباءه وحماقته . وإن استجابة زهدى لطلبها هو جميل العمر الذي لن تنساه وسوف يجعل منها جاريتها ، يتصرف فيها كما يشاء .

كان زهدى قد قرر ألا يفعل شيئاً لهذا الحقيق المنفر . ولكنه واجه محاصرة منيرة له . واهتمامها البالغ بهذا الحقيق .

وقال زهدى متخلصاً من الموقف ، أنه سيفكر في الأمر . قالها في برود وقد أسرع إلى الباب يريد الانصراف ، فتشبثت منيرة بذراعه ملهوفة مستغيثة ، وقالت له ، أنت تضحك علي ، ولو كنت ستفعل شيئاً لسألت عن اسمه وتعليمه وظروفه . ولم يجد زهدى مغراً من أن يذعن لها تخلصاً من الموقف . وصاحت منيرة في الولد أن يعطيها الورقة ، فأخرج لها ورقة اختطفها من يده وأعطاها لزهدى ، الذي تظاهر بقراءتها ، ودسها في جيبه وسارع بالانصراف وصعد إلى مسكنه ، وهو يشعر بالضيق والحرق ، يقلب في رأسه شتى الخطط التي يرد بها لمنيرة الصاع صاممين .

حتى جاءت ساعة نومه بعد أن شاهد في التلفزيون برنامج السينما والحرب ، وكان يفكر في جملة أعجبتة قالها ضابط ألماني في معتقل للأسرى ، كان يقول لاحقاً زملائه بعد أن قتلوا مجموعة من الأسرى حاولوا الهرب « هناك بعض الأشخاص تشعرون بالأسف لو تمهم ، وهؤلاء الذين قتلناهم أفضل من أولئك الفران المدعورة التي تنتفض من الخوف ولا تجرؤ على مواجهتنا .. عاملوهم بشدة .. » قال الذين كانوا يستحقون شرف الحياة قد اختاروا الموت « كان زهدى يتقلب في فراشه بعد أن أطفأ النور استعداداً للنوم ، وليس في رأسه سوى هذه الكلمات الباردة ، وصورة الضابط الألماني الوسيم بوجهه النبيل الصارم والمونوكل على عينه عندما اختفت صورة الضابط وقفزت مكانها صورة ذلك الولد الرقيق الذي رآه عند منيرة ييجو . وتذكر الورقة التي تحوى معلومات عنه ، والتي يحتفظ بها

فى جيب سترته ، ولم يستطع النوم ، كان يريد أن ينهض ويقرأ مافى الورقة من بيانات .

وأضاء الأباجورة ونهض ، وأخرج الورقة ، وما كاد يقرأ الاسم ، حتى تذكر والداه . الاسم هو الاسم ، لم يتطلب الأمر لحظة تردد واحدة ، منظر الولد برأسه الكبير ، ووقفته الصامتة ومنيرة تنهال عليه بضربات الشيشب ، لم تسمح له بأن يتردد ، أولاد ابن ذلك الرجل . . هذا يقين قاطع حاسم لا يسمح بذرة شك . صدف غريبة جمعتها الإقدار ، الفيلم والضابط الألماني والمعتقل والأسرى وذكرياته عن السجن وشوكت وذلك الرجل الذى مات . واضراب المعتقلين عن الطعام حتى لا يأكلوا لحمه ولا يشربوا دمه ، وترحيلهم الى الواحات ثم ذلك المشهد العجيب الذى وقف فيه حدادا على الرجل . شهيد الطبقة العمالية . والسفير . . والكلام عن الصداقة وتغير السياسة ، وخروج المعتقلين . . ووثوبهم الى المناصب وانتشار الافكار الشيوعية علنا فى البلد واحالته على المعاش . . وهجرة ابنه ، ثم تدور الدوائر واذا به يواجه ابن نفس الرجل . فى صورة ذلك المسخ المنفر المشوه الشاذ .

وفحص زهدى المعلومات المدونة فى الورقة ، السن ٢٤ سنة ، حصل على الثانوية علمى ، طالب فى كلية الزراعة بالسنة النهائية ، ما الذى يعطله عن الدراسة وقد شارفت على نهايتها . انه يطلب الوساطة فى امتحان قبول وظيفة فى فندق فلسطين . . يقول انه يجيد ثلاث لغات . . كلام غير معقول : وفلجأة خطر لزهدى السؤال الذى كان يجب أن يفكر فيه اول الامر ، هل يعرف هذا الولد صلة زهدى بأبيه . هل تعرف منيرة بيجو . هذه أسئلة بذيية . ويجب أن يعرف الاجابة عنها فورا ، فما الذى يدريه أن هناك شيئا يدبر له فى صفيحة الزباله التى تجمع بين منيرة بيجو و « تو » .

## الفصل الثامن

طار النوم من عيني زهدى ، وفتح النافذة واطل على مدينة  
الملاهي القائمة تحت بيته ، كانت غارقة فى الظلام ، تبرز هياكل  
مراجيحها كاشباح خرافية ، دنيا العجائب تحت ، هناك ، هناك ،  
هاجمة ، ودنيا العجائب ، فوق ، هنا فى رأسه تضج بصخب عنيف  
كان لا يقوى على التفكير ، لان الذكريات كانت تغلبه ، ولكن خواطر  
محددة كانت تهاجمه . لو كان « تو » يعرف صلته بمقتل والده ،  
فلماذا لجأ اليه ليساعده ، هل يفكر الولد فى الاقدام على عمل  
طائش ؟ وهنا ابتسم زهدى وقال لى انه استبعد هذا الاحتمال .  
كانت ابتسامته تخفى مرة اخرى شهاب القلق ، ووجدتني أقول  
بصوت أقرب الى الهمس :

— ولماذا تستبعد مثل هذا الاحتمال .

اجاب بسرعة وانفعال :

— لقد تعلمت من مهنتى الا استبعد أى احتمال ، كل شيء يمكن

أن يحدث .

يلوح بيده فى الهواء ، كأنه يطرد خاطر الذى يقلقه ، وانطلق  
بحدثنى عن ذلك الشعور الذى استولى عليه ، والذى بدا لى انه حالة  
نفسية معقدة ، ولكنها انسانية تماما ، فاذا كان زهدى قد رفض  
فكرة أن « تو » يتربص به ، وأنه يريد به شرا ، فذلك لان مشاعر  
اخطر وافدح قد هاجمته وغلبته على أمره تماما ، فقد ايقن وهو ينظر  
الى اشباح مدينة الملاهي ، ويتجول بعينيهِ فى السماء الملبدة بغيوم  
فضية تخفى ضوء القمر ، ان عين الله ترقبه ، وان هذا الوهج الفضى  
المضىء فى سماء الليل ، يقول له ان الله قد ارسل له « تو » ليمنحنه  
فى حسن ، وان ارادة الخالق ، هى التى منعت عنه النوم ، وهى التى  
دفعته الى أن يخرج ورقة « تو » من جيب سترته ، وهى التى ابلغته  
ان هذا الولد ، هو ابن ذاك الرجل ، ثم هى التى دفعته الى أن يفتح  
النافذة ، ويطل منها على السماء . نعم هذه هى الحقيقة ، وهو

وافق منها الآن . أكثر منه في أية لحظة أخرى ، هاهو يصوغها  
ويواجهها ويقولها لى كاملة واضحة لا يشوبها لبس أو غموض . وهو  
يعترف لى أن هذا المعنى لم يتضح له تماما قبل هذه اللحظة التى  
يحدثنى فيها .

وأردف يقول :

— الله عن ابنى .  
— أساعد هذه القدارة .. واتحمل نفورى منها ، حتى يرضى

أنها علامات — كما يقول زهدى — تظهر للانسان فى حياته .  
وعليه أن يقرأها ، وأن يفهمها ، وأن يستجيب لما تتطلبه منه ، والا  
حاقبت به نقمة وغضب الله .

ولقد تأثرت قى تلك اللحظة بحدثه ، رغم انى لا افهم هذا المنطق  
العجيب الذى يتحدث به ، تأثرت لانه كان يخاطبني معبرا عن كل مافى  
نفسه من أبعاد فى صلته بالكون وخالق الكون . ومعبرا عن كل مافى  
نفسه من أبعاد فى صلته كأب بابنه الذى تركه وهاجر . كان لا يتحدث  
من خبراته كضابط شرطة ، ولا يتحدث عن أطماعه فى السلطة  
والنفوذ ولا يتحدث عن شهواته وفجوره ، لقد تخطى كل هذا ،  
ليكشف لى آخر ماعنده ، وكل ماعنده ، صلته بالكون والرب ، وصلته  
بالحياة واستمرارها فى ولده .

قال ببساطة أشبه بالصفاء النادر الذى لم اتوقعه أبدا فى مثل  
هذا الرجل :

— بعد هذا الذى حدثنى به قلبى .. واحساسى بأن الله يمتحننى  
فى ابنى الوحيد ، لم أعد قادرا على مواجهة أى احتمال آخر .. كان  
لابد لى من أن أساعده .

قالها فى استسلام من لا حول له ولا قوة ، أمام أمر صادر من  
السماء . كان يبدو لى سادجا الى أقصى حد ، ولكنى لم أشعر بقوة  
كلماته وخطورتها مثلما شعرت فى تلك اللحظة . هاهو الرجل الذى  
لم يتورع عن ارتكاب جرائم القتل والتعذيب ، الذى يتساهل  
« بحرفنته » ، الفاجر الداعر ، البذئ ، السليط اللسان ، يكشف  
لى أنه مازال يحتفظ فى أعماق كيانه الرهيب ، ببذرة سداجة ، وأن  
لديه من الامكانيات ما يجعله يناجى السماء فى الليل ، ويتبادل  
معها الحديث ، ويتلقى الاوامر ، بأن يتواضع ويلوث يده بمساعدة  
من يكرهه أو ينفر منه ، كأنه يلحق الأبرص ، ليحوز رضا صاحب

## الامر وخالق الكون .

وفي الصباح ، كان زهدى يطرق باب منيرة . ودخل عليها حجرة نومها وأيقظها ، وسألها من أين جاء لها ذلك الولد . قالت له وهي تفرك النوم من عينيها ، أنه ولد غلبان ، صاح فيها يسألها ماصلتها به ، فقالت له كلاما ملتويا غامضا ، خلاصته أنها أجنبته كابنها ، فستمتها وسبها ، وطلب منها أن تقول له أى شيء آخر ، فبر هذا الكلام الفارغ عن الحب ، ولكنها صممت فى عناد أن هذه هى الحقيقة . الولد جاء الى البيت مع أحد الزبائن الذى كان يتحدث معها ، بينما جلس « تو » صامتا ، ولم تنتبه اليه ، ولم تكثرث بامرءه ، فقد بدا لها أنه جاء كتابع او سكرتير للرجل ، وحدث أن نهض «تو» فجأة وقال لها متلعثما ، انه ذاهب لشرب ، فسألته بدهشة هل يعرف مكان الفريجيدير والمطبخ فقال ببساطة ، انه لا يريد أن يزورها وأنه سيعرف طريقه ، وتركته لحاله ، ومضت دقائق قبل أن تنتبه الى غيابها ، وشعرت بخوف مفاجيء فنهضت تبحث عنه ، ودخلت عليه فى المطبخ ، فماذا وجدت ، كان « تو » قد شمر عن ساعديه ، بفصل الإطباق والصحون فى الحوض . كان منهما فى عمله بحماس وكأنه فى بيته . فاجأها المنظر تماما ، واذا بها تقول له يا أبنى . وكان يضحك ، وقال لها يا « تانت » وأنه لاحظ أنه لا توجد شغالة فى البيت ، وأنه فكر فى أن يساعدها ، كانت لا تصدق ما تراه ، ومادت مسرعة الى الزبون تروى له مآشاهده ، فلم يدهش لما سمعه ، وقال لها ، انه شاب ملحوس . ولكنه طيب القلب الى درجة الهبل . وعندما حانت لحظة انصراف الرجل ومعه تو . أمسكت منيرة بيد تو ، وسألته بكل ما يحتويه جسدها الضخم من فضول ، ما الذى جعله يفعل ما فعل ، فارتبك وتلعثم ، ولم تفهم منه سوى قوله ، انه وجد شيئا يستطيع أن يفعله فى تلك اللحظة ففعله . فقالت له ساخرة وما الذى تطلبه الآن لقاء عملك ؟ فاضطرب واحمر وجهه ولم تستطع منيرة أن تبين من خلال لعنته سوى كلمة أبدا .. أبدا .. وبعد مرور حوالى اسبوعين ، فوجئت به منيرة يطرق بابها . انا كنت بالقرب من هنا يا « تانت » قلت أفوت عليكى .. حاولت أن تصرف سببا آخر لمحبيته غير رغبته فى رؤيتها فلم تفجح . ومرة أخرى أكد لها الزبون الذى جاء به لأول مرة ، أن « تو » هكذا ، وأضساف محذرا ، انه قد يفعل معها مثلما يفعل معه ، فهو أحيانا يهبط عليه فى بيته ، ويقضى عنده أياما قد تطول الى أسبوع وأكثر ، ولكن



« تو » لم يحاول أن يبيت عندها أبداً ، كان يزورها وكأنه قريب ، بينه وبينها صلة دم أو نسب ، ووجدت نفسها تعتمد عليه أحيانا فى بعض أمورها ، فكان يلبي طلباتها بسرعة حقيقية ، اذهب يا « تو » لشراء كذا وكذا من السوق . فوت على الاجازات ، التليفون عطلان كلم النمرة دى وقول لفلان كذا وكيت .. حتى جاء وقت فكرت فيه ان تستخدمه لقاء أجر ، ولكنه كان يذهب فيختفى أسابيع ولا تدري اين ذهب ، ثم يعود فجأة ، وفى يده زهرة قطفها من حديقة عامة . ولد غريب ، غير طبيعى ، ولكنها أحبته . حتى البنات اللاتي يدرن فى فلك منيرة أحبينه . كان يضحك معهن وكانهن شقيقاته . وأحيانا كن يتخاطفنه ليذهب مع واحدة منهن الى السينما فى يوم تكون خالية فيه من الشغل . لم يحاول أبدا الاقتراب من واحدة منهن ، حتى خشيت منيرة أن يكون الولد فاقدا لرجولته ، فتدبرت الامر مع البنات ، وافقت مع واحدة منهن كانت أكثرهن تعلقا به ، وسمحت للبنات أن تكشف رجولة تو ، وهيات لها الظروف فى بيتها ، رغم أن منيرة لا تسمح أبدا بأن يتم أى فعل من هذا القبيل فى بيتها ، أن بيتها هو بمثابة الادارة العامة التى تتم فيها الاتصالات ، وتعقد فيها الاتفاقات ، أما التنفيذ فى أماكن أخرى ، هذا شرط أساسى لضمان استمرار صلتها الودية بشرطة الاداب . ولكن من قال أن « تو » زبون . انها تعتبره واحدا من اقاربها . بل هو أصبح بمثابة ابنتها . وأعدت منيرة الاحتفال المناسب . ملوخية بالارانب ، وسهرة عائلية مع تو وسعاد حتى منتصف الليل ، ثم الحاح من منيرة أن يقضى «تو» الليل فى بيتها ، ولم يدعن حتى قالت له أنها تحتاج إليه فى أمر هام فى الصباح . وانتظرت منيرة اللحظة المناسبة التى تنسحب فيها ، تاركة تو مع سعاد وحدهما ، ولكن « تو » لم يد عليه أنه قد فهم شيئا آخر ، غير أن منيرة هى « ثانت » وأن سعاد شقيقته . واضطرت منيرة أن تضع النقطة على الحروف . قالت له بصراحة . ان لديها حجرة نوم واحدة قعر حجرتها الخاصة ، وأن فى تلك الحجرة سريرا سوف ينام عليه ، وقد أعدته لراحته ، ثم قالت له ان سعاد سوف تقضى هى الأخرى ليلتها فى البيت وسوف تنام مع تو فى نفس السرير ، وفى الصباح قدمت سعاد تقريرها الى منيرة ، وكان تقريرها مطمئنا تماما عن رجولة تو . رغم اعتراف سعاد بأنها هى التى قامت بكل المقدمات الضرورية للوصول الى معرفة الحقيقة

وكانت هذه هي اول عملية تقوم بها منيرة مجاناً لوجه المعرفة ، لا من أجل المال . الطلب الوحيد الذي طلبه « تو » من منيرة ، هو ، اذا ماكانت تعرف أحداً مهماً يستطيع أن يتوسط له للعمل في فندق فلسطين . عندئذ فقط فكرت منيرة في اللجوء زهدى . وكان ماكان . رغم أن زهدى استراب مما كانت ترويه له منيرة ، وخيل اليه أكثر من مرة أنها تسرح به ، إلا أن نفس الريبة داهمته بشعور آخر على النقيض من الريبة والشك ، فقد طغى عليه احساس بأن هذا الذى حدث بين منيرة وتو ، كان أيضاً من تدبير الإقدار ، هي التي جعلت هذه المرأة الجبارة تلين وتحب تو ، وتعامله كابنها ، هي التي حطمت كل مافى هذه المرأة من جشع ولا مبالاة بأى مخلوق فى الدنيا لا تكسب من ورائه قرشاً . انه يعرف منيرة جيداً ، امرأة تتاجر بالأعراض ، تبيع نفسها وتبيع ابنها ، لتكسب من الدعارة ، فما الذى جعلها تتحول على هذا النحو مع « تو » بالذات . نعم ، انها مشيئة عليا ترتب الاسباب ، ليشق « تو » طريقه واصلا الى زهدى . انها ارادة الله ، قدفت بتو نحو زهدى عن طريق منيرة بيجو ، قدفته سؤالا تمتحن به الاب ، وتنتظر منه الاجابة ، فاذا نجح انقلبت ابنه ، واذا فشل قضت عليه .

قال زهدى لمنيرة :

— سوف أساعده .

فتהלل وجهها فرحاً ، وهجمت عليه قبله ، فدفعتها بكلتا يديه ، شاتماً لاعتنا موجهها اليها والى تو كل مايعرفه من الفاظ قذرة بذيئة . ولكن منيرة لا تهتم الا بالتصرفات العملية والنتائج ، كانت شتائم زهدى أكاليل ورد تعنى انتصارها فى تحقيق رغبتها فى مساعدة « تو » . وبهتف زهدى فى وجهي فيما يشبه الصراخ ، انها ليست رغبتها .. مستحيل .. انها رغبته هو ، ورفع اصبعه الى السماء . وكان منظره ساذجاً شديداً البلاء . وكان رغم ذلك قوياً مؤثراً . وقبل أن ينصرف سألتها ذلك السؤال الذى كان يريد أن يبدأ به . هل تعرف شيئاً عن عائلة تو . قالت له انها لا تعرف الكثير . وانها سألته عن امه ، فقال انها تعيش فى طنطا مع عمه الذى تزوجها بعد موت والده . وانه يعيش وحده فى الاسكندرية . فسألها وهو يتظاهر بجمع معلومات قد تفيده فى البحث عن وظيفة مناسبة اذا ما كان قد جدتها عن ابيه . فقالت له انها لا تعرف عنه شيئاً سوى انه مات وشعر زهدى انها تكذب ، ولم يقتنع بأن هذا هو كل مايعرفه ، ولكنه

فضل أن يحتفظ بشكوكه لنفسه . وسألها أخيرا وهو يودعها ، اذا ما كان تو يعرف من هو زهدى . فانطلقت منيرة فى نفاق لا يفيسد ، قائلة ان كل الناس تعرف من هو زهدى بك وتعرف اهميته ونفوذه فاضطر ان يسألها وهو حائق ، عما اذا كان تو هو الذى اقترح وساطته ام هي . فقالت منيرة انها هي التى فكرت فى ذلك . ثم سألته فى خوف حقيقى اذا ما كان قد عدل عن رأيه او أن هناك شيئا مالا يرضيه فقال لها انه لا شيء هناك . وطلب منها أن يتصل به « تو » فى النادي ليخبره بما يستطيع أن يفعله . .

وهنا سكت زهدى . وبدأ لى أنه مرهق . اسند ظهره الى المقعد وملا صدره من شهيق طويل ، يعقبه زفير لاهث ، يكاد لا ينتبه الى وجودى ، ولزمت الصمت ، ولو كان قد طلب منى فى تلك اللحظة أن أتركه وشأنه لفعلت ، فقد رثيت لحاله ، وشعرت نحوه بشفقة حقيقية ، أخرجتنى حتى فكرت فى أن استاذن منه وانصرف ، لولا أنه بدا كمن يفيق . ويعتدل فى جلسته ويقول لى وكأنه نسى تماما ما كان يتحدث عنه . انه يعرف تاريخ منيرة ، وجعل يثرثر بكلمات منها ، قال انها كانت بنت ناس طيبين ، وان جبالها المروع فى صباحها هو الذى انتهى بها الى هذا المصير ، زوجها وهى فى سن المراهقة من ضابط صغير طائش كان يتركها وحدها ويلعب القمار ، واذا خسر عاد الى البيت ولازمه وتكد عليها بالشتيمة والضرب واذا كسب فلا ترى وجهه ، وانتهى بها الحال الى التعرف الى سيدات فاسدات من الطبقة الراقية ، تعرفت عن طريقهن باعيان باشوات ايام كان الاعيان اميانا والباشوات باشوات حقيقيين لا كباشوات السينما والتلفزيون فى هذه الايام ، وفتن بمنيرة «ع» باشا الذى كان وزيرا للاوقاف يوما ما . وكانت له شهرته المدوية فى عالم الهلس والمغامرات النسائية ، وقد عرفه زهدى وجلس معه فى شبرد القديم الذى احترق . وراه يشرب الويسكى فى فنجان شاي . ويقول ان الويسكى حلال شرعا . لانه ليس خمرًا فهو مقطر والمقطر حلال والخمر كالنبيذ والزبيب هو الحرام . وكان « ع » باشا هو المنقلد لمنيرة من زوجها . فقد تدخل فى الطلاق ونجح فيه ، واشترى لها ايامها عربية فورد فارمة ، كانت تركبها وقد ارتدت معاطف الفرو الثمين ، وزينت جسدها باللؤلؤ الحر ، وتدلّى من اذنيها قرطان من الماس ، وراى زهدى اساور الذهب البندقى فى شكل ثعابين تتلوى على ساعد منيرة من رصفها حتى منتصف ذراعها .

كانت آبة في الجمال والروعة والابهة . ذات مرة رآها مع الباشا في بنوار في الاوبرا الإيطالية وكان قد حصل على تذكرة من صديق له . ولم يشاهد شيئاً في الاوبرا ، ولم يسمع غناء . كانت عيناه لا تفادران وجه منيرة ، حتى لفت اليه الانظار ، ولكنه لم يهتم . ثم انقلب الحال . وضاع الباشا مع من ضاعوا من رجالاات البلد . وقضى بعض الوقت ضيقاً في السجن ، ولكن زهدى - وكان مازال ضابطاً صغيراً في مصلحة السجن - استطاع ان يجعل من حياة « ع » باشا في السجن احسن من حياة نزيل الهيتون او الشيراتون . كان لديه كل شيء ، ولا أحد يناديه الا بلقبه معالي الوزير ، وسعادة الباشا وكان الطعام يصل اليه كل يوم في شبه وليمة ، صواني الحمام المحشو بالفريك ، والدبوك الرومي والارز بالخلطة المضبوطة بالزبيب والصنوبر والبندق ، والتفاح الامريكاني ، والكنافة والبسبوسة ، وكانت منيرة هذه تبيع من مصاغها لترسل للباشا الهدايا ، أحدث الولاعات وعلب السيجار روميو وجولييت وبارتجاس وكوفيات كشيم وكل مايجبه قلبه . وكان ضباط المصلحة الكبار يزورونه من وقت لآخر لتلبية كل طلباته ، احياناً يذهب الى المستشفى ، وتفتح له الزيارات ، وهكذا عاش في نعيم وقضى فترة استجمام \* ثم خرج وسافر الى أوروبا . وبعد سفره تدهورت حال منيرة التي أرادت ان تصحبه فرفض وتخلي عنها . وبعد سنوات كانت الاسكندرية تتحدث عن منيرة فورد التي تبحث عن باشا آخر فلا تجد ، حتى تحطم الوهم ، وواجهت الحقيقة المرة وباعت الفورد التي كانت تستخدمها في صيد رزقها ، واصبحت كجندي فقد سلاحه فسرعان ماتلقت الضربة القاضية بالقبض عليها ودخلت السجن ، وخرجت منه مضعضة ولم تعد كما كانت ، ولكنها أصبحت امرأة مجربة سافلة عريضة في السفالة . ومع ذلك فهي على صلات حسنة بالشرطة ، تقدم لهم مايلبونه من معلومات ، ولا غرابة في هذا ، فالشرطة لا تستطيع ان تقبض على كل مومس في البلد ، والا ضاقت السجنون بهن ، واضطرت الدولة الى بناء عشرات السجنون الجديدة . ان قوة شرطة الاداب لا تجرى وراء كل مومس ، انه يكفيها ان تسيطر على الموقف ، فالدعارة ستظل موجودة ، ومن المستحيل منعها .

ورفع زهدى يده كانه يتدارك شيئاً وقال :

- لا مؤاخذه .. في الحقيقة أنا كنت اريد ان اذكر كيف التقيت

بالولد تو فى النادى فسرحت وحدثك عن منيرة ببجو ، على فكرة  
أنا الذى غيرت الاسم .. قلت لها ان الاسم المناسب هذه الايام هو  
الببجو .. لان الذين يذكرون الفوردهم العجائز امثالنا .

ابتسمت له مشجعا ، رغم أن الكثير مما كنت اشعر به نحوه من  
شفقة قد تبدد مع هذه الشطحة التى اندفع فيها ، كنت لا املك منع  
نفسى من المقارنة بين الكيفية التى استقبل بها والد « تو » فى السجن  
والحفلة التى أقيمت له ، وذبح فيها الرجل ، وبين تلك الولايم التى  
تذبح فيها الديوك الرومية من أجل « ع » باشا ، والتكريم الذى  
يقابل به هو وامثاله فى المستشفيات للعلاج والترريض والاستحمام  
باسم السجن . كنت أواجه هذا الانحطاط العلى والاخلاقى السافر  
الذى يجعل زهدى يتكلم باعجاب وامتنان عن جمال منيرة عشيقة  
الباشا ، لانها ترفل فى الحرير والفراء وتزدان بالجواهر والماسات  
وتركب عربة فورده فارهة ، ثم يتحدث عنها كامرأة سافلة فى مستنقع  
او صفيحة زبالة ، لان الجاه والمال قد تخليا عنها . ان هذا الرجل  
لا يدرك مدى مافى عقليته ونفسيته من تشوهات ، وهو لا يدرك ان  
مجرد وجوده وتسله لاي نوع من السلطة ، بل ان مجرد احتكاكه  
بالآخرين كفيل باحداث عاهات فى نفوسهم . ولكن مهلا . لا يجب  
ان اندفع وراء انفعالاتى . ويجب ان ألزم الحذر ، حتى يكمل تصورى  
هذا اذا استطعت حقا ان اصل الى صورة متكاملة لهذا الذى  
اكتب عنه .

وسمعت زهدى يروى لى كيف دخل عليه « تو » النادى ،  
وكان قد شذب شعره بعض الشيء ، ولم يشك فى ان منيرة قد  
لدخلت فى ذلك . كان زهدى يتفرج على بعض لاعبى البيدج انتظارا  
لدوره ، وترك تو واقفا . وقال له فى حنان لم يكلفه الكثير ليصطنعه  
لانه كان يفكر فى ابنه « اسمع يا شاطر سوف أساعدك ، وان شاء الله  
سيكون ذلك قريبا . ولكن لا تقل كثيرا على موضوع فندق فلسطين »  
فقال له تو على الفور ، انه سعيد بأى عمل ، وبرر ذلك بحاجته الى  
المال لانه يعيش مستقلا عن اهله . وهنا سأل زهدى مباشرة عن ابيه  
فقال تو انه مات . سأل زهدى ، من هو ، ما اسمه وماذا كانت  
وظيفته . قال تو انه كان مدرسا . ولم يذكر أى شيء عن مقتله . وقال  
زهدى مواجهها تو الذى كان يتلثم فى اجاباته :

« أنا يا ابنى ضابط واعرف من هو أبوك .

فأجاب تو بسرعة مرتبكا :

— سعادتك تقدر ظروفي .

ويقول زهدى معلقا على هذه الإجابة انها كانت تبدو صادقة .  
موجية بأن تو لا يعرف شيئا عن صلة الرجل الذي يخاطبه بأبيه . ومع ذلك فهناك احتمال ضئيل بأنه بارع في التمثيل . ولكن على أية حال كانت لا تبدو على تو شراسة ، أو ما يشير الى انه يعتزم أمرا طائشا ، وتشجع زهدى فانسحب من مائدة البريدج ، وجذب تو من يده الى ركن في النادي وأجلسه ، وجعل يسأله عن صلته بمنيرة ، وما اذا كانت تعرف شيئا عن أبيه . فأجاب تو بأنه قال لها فعلا أن والده مات في السجن . فقال له زهدى في وقاحة سافرة . انه يدرك الآن سر اعجابها به ، فهي ايضا كانت نزيلة السجن مثل أبيه ، ولم يسد على تو اكتراث بهذا الحديث ، ومرة أخرى شعر زهدى بالاطمئنان ، الولد يتقبل منه كل شيء . واذا كان لا يفعل ذلك من عهد ، فلا بد أن الإقدار هي التي جعلته طيعا لتسهيل مهمة زهدى في مساعدته . .  
وقال زهدى لتو ، أن عليه أن يمر عليه بعد بضعة أيام حتى يكون قد نظر في أمره . ويعجب زهدى مما حدث له بعد ذلك ، فقد وجد نفسه غير قادر على التحدث مع أحد في مساعدة تو . فحسم أن العشرات من الموجودين في النادي يستطيعون بكلمة واحدة منهم أن يتوسطوا له في وظيفة هنا أو هناك . وكان تو يتردد على النادي ، فيطلب منه زهدى الانتظار يومين آخرين ، وتعود « تو » على دخول النادي ، واستطاع بسرعة غريبة أن يتعرف على كثيرين من أولاد الأعضاء في مثل سنه ، وجلس معهم يلعب البريدج . وفوجيء زهدى بمن يسأله ذات مرة ، عن « تو » وصلته به . واذا به يجيب في عصبية :

— مالكش دعوة يا أخى .

وبدا يسمع الهمسات التي تدور هنا وهناك ، وهو قادر على تبين ما يدور في الخفاء ، وعرف انهم قالوا أن زهدى قد استعان بهذا الولد في أعمال خاصة بالمباحث أو المخابرات . . وسكت ، وقال لنفسه ، ليتوهوا اى شيء . . ملعون ابوهم . . بل سره انهم خائفون .

والفتت زهدى الى وسائلي :

— هل خفت انت أيضا ؟

قلت له :

— طبعاً . .

فضحك ، وقال :

- طبعا ستحكي لهم كل ما رويتك لك الان .

قلت متحيرا وقد فاجاني بالسؤال :

- لا ادري .

قال :

- اريد ان تحتفظ به لتكتبه فى رواية .

قلت مرجبا بهذا المبرر الذى ساقه لى :

- فكرة .

فقال :

- فى الحقيقة .. انا لا يهمنى ان تقول لهم حقيقة الولد .. لولا

خوفى من ان يسبئوا اليه . على الاقل من باب الرحمة او الانسانية ..

لو عرفوا ان والده كان شيوعيا .. فلن يرحموه .

قلت فى دهشة :

- حتى لو عرفوا كيف مات .

قال متفائلا :

- لو عرفوا .. سوف يمنحوننى نيشانا .. هل تشك فى هذا ؟

قلت :

- ابدا .

فحدجنى بنظرة طويلة .. قبل ان يقول ، انه وجد نفسه فى

نهاية الامر يدخل معركة مع اعضاء النادى عندما قرروا طرد تو ، لانه

يتردد على صالة اللعب ، ويختلط بالاولاد .. مع انه ليس عضوا ..

فلما شخط فيهم زهدى ، سارعوا بتعيينه معاونا لصالة البريدج .

- وهكذا استرحت .

فسالته :

- كيف استرحت .

قال كالمخاطب نفسه :

- فى الحقيقة .. كنت اريد ان يبقى الولد بالقرب منى .

فسالته مستفسرا :

- اشعرت بعاطفة ابوة ؟

قال وهو يصدر شخيرا بديئا :

- ابوة .. ربما ياسيدى .. انها حالة ركبتي .

فقلت له :

- ولكنك انزعجت عندما علمت بحسبكاياته مع رجال الشرطة

ومشاجراته التي لا تنتهي .

فسألني باهتمام :

- ما رأيك أنت ؟

قلت :

- لا أدري .. ربما كان ماحدث لوالده . هو السبب ..

قال زهدى مفكرا :

- أى هو يعرف .. ولكنه لا يعرف أنى كنت الرجل الذى أشرف على العملية .

قلت مترددا :

- من يدري .

قال لى زهدى فجأة :

- لقد فكرت فى مصارحته .. ولكنى لم أستطع .

قلت مؤمنا على كلامه :

- لا اظن أنك تستطيع .

فقال وهو يزفر الهواء بقوة :

- اليس هذا امتحانا غريبا .

ثم عاد وقال مؤكدا .. انه واثق ان تو لا يعرف عنه شيئا لقد ذهب الى منيرة وواجهها بأنها أخفت عنه ان تو قال لها ان اياه كان نزيل سجون ، فاصفر وجهها ، وحاولت ان تعتذر له بأنها خافت ان تسب هذه المعلومة الى الولد ، وفرح زهدى بما سمعه ، فمعنى هذا انها لا تعلم صلة زهدى بوالد تو ، ولو كان تو يعلم لقال هذه المعلومات لمنيرة .. الا اذا كان ذلك الاحتمال الضئيل بأنه يدبر أسرا مازال قائما وانه يجيد أداء دوره ببراعة حتى على منيرة نفسها .. وقد اختلطت مشاعر زهدى بين الفرح والشك ، فلم يتمالك نفسه فى ذلك اليوم وانهال ضربا على هذه المرأة الضخمة ، كما لم يضرب فى حياته انسانا ، ولكنها تحملت ولم تفتح فمها بكلمة واحدة .. كانت تقول له وهى تتلقى الضربات .. انه صنع لها جميل العمر كله .. بتعيين تو فى وظيفة فى النادي .

ونفاجأة ، عاد زهدى يحدثنى بتلك النظرة الطويلة التى لم أفهم سرها ثم قال ان ضابطا كبيرا مثله ماكان ليهتم بمصير ابن مجرم خارج على القانون ، لو ان ذلك المجرم فكر فى مستقبل اولاده ولم يعرضهم



للضياح بمقامراته الشيوعية .. وقال زهدى انه يحمل كراهية خاصة لهؤلاء الشيوعيين ، لان وجوههم كالحة واغلبهم يستعمل النظارات ، ولانه عندما يتعامل مع المجرمين الاخرين ، يستطيع ان يتبادل معهم الكلام ، احيانا يقولون له نكتة او يقول هو لهم نكتة . هذا ممكن مع قاتل او تاجر مخدرات او لص او نشال .. انهم على اية حال بشر .. اما هؤلاء الشيوعيون فالعياذ بالله .. لهم طريقة سمجة فى الحديث ، وافكارهم غامضة ملتوية ، وينظرون اليك نظرات ثعبانية لثيمة وكل همهم هو افساد عقول الشبان ، وباختصار .. هكذا قال زهدى مؤكدا فى نهاية شرحه لكراهيته الخاصة للشيوعيين ، ان اى ولد قصير نحيف .. منكوش الشعر يضع نظارات سمكية على عينيه ويتكلم بعصبية وحدة .. هو شيوعى .. ودليل زهدى على صحة كلامه هو مقالات كتبها الاستاذ العقاد عن هذه النماذج الشيوعية . وعاد يحدثنى بنظراته الطويلة الغريبة ، وكأنه ينتظر منى ان اقول شيئا .

فقلت :

— انا لم اقرأ هذه المقالات .

فلماذا به يسألنى :

— انت معى .. ام لا .

سألته :

— ماذا تقصد .

قال فى ضيق ونفاد صبر :

— هذه اجابة من يتهرب من الاجابة ، لو كنت ضدهم .. كنت

اجبت بالقلم المليون .. ان الشيوعيين ولاد كلب .. اما ان تسألنى ..

ماذا اقصد .. فهى تعنى انك شيوعى .

قلت ضاحكا :

— لن تحاكمنى يا زهدى بك .

قال باسماء وقد خفض صوته :

— اسمع .. انا اريد ان افهم منك حقيقة الامر .

ونسى تماما كل كلامه السابق واحكامه القاطعة عن الشيوعيين

.. واذا به يقول لى وهو يغمز بعينه ..

— اذا كنت شيوعيا .. فافهمنى .. ماهى حكايتها . اريد ان

اناقل مع هذا الكلام عن الاشتراكية والتقدمية يا اخى .

## الفصل التاسع

كان من المستحيل أن يدور بيني وبين زهدى جوان له معنى حول الشيوعية أو الاشتراكية ، أن الرجل لا يريد أن يفهم أو يقتنع بشيء ان مطلبه بسيط وواضح . مطلب الرجل الانتهازي ، الذي يرى ، كما يقول ، أن بعض من في السلطة يتحدثون عن الاشتراكية ، وبعضهم افكاره ماركسية بل كان معتقلا تحت قبضته في السجون ، فلماذا أصبح لهؤلاء سلطة ونفوذ ، بينما ضاع منه كل شيء ، وأصبح لواء على المعاش .

كان يريد أن يفهم سر اللعبة . وكانت لا تعنيه الافكار والمبادئ فقد حاولت أن أشرح له ، فقاطعني في ضيق ورفض حاسم لاى كلام نظرى ، انه يريد أن يعرف العلاقات الشخصية ، الصلات الخاصة التى أدت بهذا أو ذاك إلى مناصب الوزارة أو مراكز السلطة . وكان يؤمن بأن تعدد الآراء والاتجاهات بين المسؤولين ، له هدف واحد ، هو أن يكون كل واحد منهم رقيقا على الآخر ، يحدا من توغل نفوذه أو تضخم سلطته . فلان له اتجاه اخوانى فلا بأس من أن تضع فى طريقه فلانا الشيوعى . وهذا الوزير عقليته أمريكية فلا بد أن يكون وكيل وزارته أو الوزير الذى يتولى وزارة أخرى متصلة بأعمال وزارته له صداقات مع الاتحاد السوفييتى . كان زهدى يتصور تشكيل المناصب والمراكز وكأنه طبخة « تورلي » تحتوى على البطاطس والفاصوليا والكوسة والباذنجان وكل ما يخطر أو لا يخطر بالبال ، ليأكل الجميع وينبسط الجميع ، وقال لى مازحا ، أنا قمت ياسيدي بدور الكوسة وانتهى أمرى الى ما انتهيت اليه ، فلا بأس من أن أقوم الان بدور الباذنجان أو الفاصوليا ، وعيشا حاولت أن أفهمه أن لعبة السياسة أخطر من هذا ، وأن القضية ليست فى أن يأكل وينبسط ويتمتع بالنفوذ ماث أو بضعة آلاف يدورون فى تلك المناصب ، بل هى قضية مصالح ملايين فقيرة تسعى للحصول على حقها فى الحياة الكريمة ، لم يفهم أبدا أن الاتجاهات المختلفة والآراء المتعددة المتعارضة تعكس حلولاً مختلفة ، وقناعات متعارضة حول مصير هؤلاء الملايين .

واوقف زهدى الحوار بيننا ، قائلا لى بصوت جاد ، ان كلامى هذا على وجه التحديد ، هو الذى يؤدى بصاحبه الى السجن ، وانه يحذرني من ترديده ، وهو ينصحنى بحكم خبرته الطويلة ، فالذين يقيمون فى الكمين وتبتلعهم غياهب السجن ، هم أولئك الذين يتحدثون بهذا الكلام النظري ، وهم حمقى ، ولا ينصاع الى كلماتهم إلا الشباب الآخرون ، فيحدثون هياجا وفوضى ، ومن هنا يتحتم الإيقاع بهم وضربهم ، كان زهدى يحدثنى بحرارة الصديق ، الخائف على مصرى ، والذى يدعونى الى ان أسلك معه الطريق الصحيح ، طريق توطيد مابيننا من علاقات شخصية ، وأن نساعد بعضنا بعضا مستغلين مالنا من علاقات لندخل فى طبخة التورلى ، او يكون لنا فيها نصيب ، وهكذا تركته فى تلك الليلة وقد اضاف الى شعورى بالخوف من احوال التعذيب والبطش شعورا افدح بالمعجز . والذى حدث بعد تلك الليلة انى قضيت فترة طويلة لا أستطيع التردد فيها على النادي ، ولا الاتصال بزهدى ، ولم يكن ذلك بسبب قرار اخذته او سلوك معين اتبعته ، بل كان ذلك اشبه باستسلام لمشاعر غامضة تدفعنى الى تأجيل التردد على النادي مختلفا اعدارا تافهة ، وقضيت تلك الفترة اتردد على قهوة الشطرنج بميدان المشية ، لعب فيها الشطرنج من الصباح حتى المساء ، مكتفيا بسندوتشات الفول او الفلافل لا افكر فى شيء غير المربعات البيضاء والسوداء ، تتحرك عليها قطع الشطرنج ، وكنت اذا ارهقنى اللعب لا اغادر المقهى ، فاجلس اراقب اللاعبين الآخرين ، لا عمل لى فى الحياة غير تتبع الملوك والوزراء والفرسان والبيادق يتحركون فوق المربعات حتى يصبح احد الخصوم كس ملك مات .

فيثور صخب وضجيج ثم تنتصب القطع من جديد فوق المربعات ويبدأ صراع جديد . ولا ادري كم كان يستغرقنى مثل هذا الادمان ، لولا اصابنى بانفلونزا حادة لزممت معها الفراش ، وهانذا ابدأ نشاطى بعد ايام المرض بكتابة هذه الاوراق . فما الذى وصلت اليه ؟ . ويجب ان اعترف انى اثرت كثيرا من الاسئلة الشجاعة ولكنى لم اكتب حتى الان اجابة شجاعة واحدة ، سألت نفسى هل انا عاجز عن مواجهة اعمال البطش والتعذيب والقتل ، لو كان الامر موافا فحسب لهان بعض الشيء ، ولكنهم يقيمون الحفلات التى يهدرون فيها رجولة الانسان ويتغنون فى تحظيمه وهو مازال حيا . هل هذا هو الذى يخيفنى الى درجة الشلل ؟

سألت نفسي عن قيمة الكاتب الذى يكتب للناس وهو خائف مما قد يواجهه ، هل اقبل نصيحة زهدى ، الذى فهمته تماما بينما عجز هو عن فهمي ، لاداعى للاستسلام للانفعالات ، ولاداعى للتورط فى خيالات رومانتيكية مع منظر البحر وصيادى سمك المياس الذين تبدو مراكبهم فى الافق ..

لقد عجزت عن شرح قضية السياسة لزهدى ، فهل انا افهمها حقاً ، ولكنى طوال حياتى وانا أحاول أن افهم .. والشبيوعيسة والاشتراكية بينى وبين زهدى ، هو الحوار الوحيد الذى عرفته ، انى اخترن فى ذاكرتى العشرات من المواقف التى دار فيها الحوار بينى وبين الآخرين ومن كل موقف خرجت بفكرة ، ورسب شيء فى أعماقى ، كنت اسير جنباً الى جنب مع ذلك الكاتب الشيوعى « ب » فى قنابة صنوبر بالجبال وكان الثلج يغطي الأرض ، وقال لى الرجل : — أنا شيوعى ، ولكن عشرة فى المائة فقط من الشيوعيين هم الذين يستحقون الاحترام ، الباقون مازالوا فى حاجة الى تهذيب وثثقيف يخلصهم من الجهل ..  
وسألت فى دهشة :

— اهذا رأيك ؟

قال وهو يحذرني من أن اتزحلق واسقط على الثلج :  
— عندما تقول اننى اميش لكل الناس ، وعلى استعداد لان اهب حياتى من اجلهم ، وتطلب ان ياخذ كل انسان بمقدار عمله ثم بمقدار حاجته .. فلا بد ان تكون قد وصلت الى درجة عالية من التربية والثقافة ، الناس يولدون كالاطفال .. فرائزهم نهمة جشعة .. تمتد ايديهم الى كل شيء تقع عليه عيونهم يريدون اختطافه وتملكه ، ان الاطفال اشد المخلوقات أنانية وفردية ، ولذلك كان لابد من تربيتهم وثثقيفهم .. وهذه التربية لا يصل اليها حاليا الا القليلون .  
كان يتحدث بانفعال وحماس .. فنسى فى ظمار حديثه ان يحذرني فاذا بى اتزحلق .. واجذ قدمي تنزلقان واطير فى الهواء لاسقط على ظهري فوق الجليد ..

وصاح الرجل فرعا وهو يمد يده الى .

— هل اصبت ؟

قلت وانا انهض واحرك ساقى :

— حمد الله .. لم اصب ..

قال باسم :

— ان الله فى عقلك .. وليس هناك يتسلى بمراقبتك فى السماء .. ان مستشفيات تشيكوسلوفاكيا جميلة ، ولكنى لا أريدك أن تقضى أيامك هنا فى المستشفى ..

واذكر ذلك الشاعر فى وسط آسيا ، ونحن نجلس فى مزرعة جماعية بجوار سمرقند ، وقد دعانى الى الشاي ، فاذا به يتكلم بلغة الشعر . والفودكا والبراندى ، هما عنده آلساى ، وقال لى :

— عندما قامت الثورة .. ظن الناس أن كل شىء أصبح ملكا لهم ، فانقضوا على كل شىء يبهونه .. حتى أخشاب ومقاعد عسرات القطارات فكوها وحملوها الى بيوتهم .. سرقوا المخازن .. لم يسلم شىء وقع تحت ايديهم .. كان الفارق هائلا بين تعاليم ثورة وغرائر ناس ..

ثم صمنت برهة وقال :

— اضطررنا أن نبحث عن حراس مسلمين متدينين لحراسة المخازن .. ان المبادئ الجديدة لم تتأكد بعد فى النفوس ، واذا كانت غير واضحة تماما فى العقل فلا شىء يقف حاجلا بين الانسان والاندفاع وراء غرائزه وشهواته الخاصة ، نعم كان الحراس المسلمون يسهمون فى حراسة ثروات مجتمع اشتراكى .. لان تعاليم الدين تمنعهم من ارتكاب السرقة .

وهناك فى مقهى امام متحطة مترو مونبارناس فى باريس ، جلس الصحفي الاشتراكى الفرنسى ، بجسمه الضخم بلوك بين شفتيه سنجارة جلواز ، متحدثا بعصية :

— يقولون ان التاميم استبداد . وان الاشتراكية جبريمة .. ونخيفوننا بمذابح ستالين التى سفكت دماء عشرات الالوف ، ولكن المبدأ شىء والمذابح شىء آخر .

ونزع الرجل الجلواز من قمه ، وسحقها فى منفضة أمامه ومضى يقول :

— هنا فى باريس شاهدنا مذابح الثورة الفرنسية ، كانت الجيولتين هى « الفديت » النجمة التى تسهر باريس حولها ، تسلى برؤية السكين تفصل الرقاب ، والرقاب تسقط فى السلال .. كان بينها رقاب بريئة ولاشك ، ذبحت باسم الديمقراطية ، والحرية والليبرالية .. أرهاب روبسبير . صرخة مدام رولاند « انتها الحرية كم من الجرائم ارتكبت باسمك » يومها كان هناك من يقول فى إنجلترا والمانيا والنمسا ، حيث يعيش النبلاء : هذا هو ما جلبته

الحرية ، هذه هي النتيجة الحتمية للديمقراطية ، لقد تسلم الاوغاد مقاليد الحكم ، اصبح الرعاع وحثالة البشر هم السادة . نفس الكلمات التي نسمعها اليوم عن الاشتراكية او الشيوعية ، اني ياسيدى لست شيوعيا ، لا احمل بطاقة الحزب ، ولكنى ارفض أن يغرر احد بعقلي ، انى ارفض المذابح والقسوة والبطش والاعتقالات واهدار آدمية البشر ، ولكن ليس بسبب هذا الرفض ، اختار الغاء عقلى ، فأقول لو كنت معاصرا لايام روبسبير ، انى مع عودة النبلاء ورجسوع حكم آل بوربون .. او أقول اليوم بعودة المليونيرات والمحترمين وقياصرة الاسواق والبورصة .

ثم ذلك الامر يلى عالم الكيمياء ، فى المقعد بجوارى فى الطائرة التي نقلنا من سانت لويس الى شيكاغو .

— سيدى .. اننا جميعا كعلماء نفكر اليوم بالمنهج المادى الجدلى .. لانه حقيقة علمية لاجدال فيها . ولكن الخلاف بينى وبين الماركسيين مازال قائما .

واسأله فى فضول :

— كيف ؟

فيجيب :

— نحن نطبق المنهج .. ونرفض النتائج الاجتماعية .. المنهج أداة للمعرفة . ولكنه ليس هدفا فى حد ذاته ، النتائج مازالت غير محكومة بمنطق تستطيع ان تسيطر عليه .

واستبعد ذلك الحوان الهادى فى حلقة شتوية فى موسكو ، والرجل المفكر البدين يبدو وكأنه على وشك النوم .. ومع ذلك فأفكاره حادة عنيفة .. لا أكاد أصلق انها تصدر عن هذا الجسد المترهل الكسول . كان الرجل يقول وكأنه يتحدث وهو يقالب النعاس :

— لقد عرفت معتقات ستالين ، كنت احذ نزالها .. لاني رفضت السياسة الجامدة .. انها ليست علمية .. مثالا لا تستطيع ان تقول علميا ان مجتمعا مثل مجتمعكم المصرى قادر على أن يكون شيوعيا . الان .. ان القرارات والأوامر لا تحقق هذا . انها طيش وهراء ان تحقيق الاشتراكية أولا يحتاج الى توافر ظروف معينة .. منها ان تكون الطبقة العاملة قادرة على ان تحكم .. وان تدبر عمليات الانتاج . هذا الطرف لم يتعمق تاريخيا بعد عندكم . ان البسلاد المنامية فى حاجة الى مرحلة أولى هي مرحلة التصنيع .. والمصانع

تهيب الظروف لخلق الكوادر العمالية الناضجة .. ثم ارتفع صوته  
كمن احس بأنه يوشك ان ينام فعلا :

— الصناعة بأى اموال .. حتى لو كانت اموال المرتشين الذين  
يسرقون الشعب .. كل مصنع يقام بتلك الاموال سوف يعود في يوم  
أقرب مما تتصور الى أصحابه الحقيقيين العمال والفلاحين .

وذلك الاستاذ الجامعي بجامعة القاهرة الذى يحرص على اداء  
فرض الصلاة في موعده وهو يقول بحرارة اليقين :

— مالها الشيوعية .. انها كافكار شىء عظيم .. النقطة الوحيدة  
التي اختلف فيها مع ماركس .. هى موقفه من الدين .  
ثم يقول بلهجته الواثقة :

— لو كان ماركس عرف الاسلام . لما ناصب الدين هذا العدا .  
انه انشغل بسلطة الكنيسة واقطاعها .. فتوهم انها الدين . وعدا ذلك  
فما الذى تعترض عليه عندما تنادى بحصول الانسان على ما يحتاجه  
او بمقدار عمله .. امر عظيم وعادل .. انا شخصا لست عاملا ولست  
فلاحا ولم اتضور يوما ما من الجوع .. والامر بالنسبة لى هو قضية  
ضمير . وانا افهم ان كرامتى لا تتحقق الا بكرامة الاخرين . ان سلامة  
الانسان النفسية والجسدية وقدرته على تحصيل العلم الصحيح  
والتمتع الحقيقي بالحياة لن يتم وهو يعيش وسط الجهل والشعوذة  
والسلب والنهب وسوق الفرائز المنصوبة ، لا توجد بروج مشيدة  
يستطيع ان يتخفى داخلها الانسان مما حوله مهما كان قدره ومهما  
كانت منزلته ، ان حريق الجهل يلاحقه ان الجاهل مظلوم وهو فى نفس  
الوقت يحرق ما حوله ، والمريض مظلوم ، ولكنه شرير . انه جحيم  
يدمر ويهلك كل ما تمسه يده . ان الفقر يدعو الناس لارتكاب  
أبشع الجرائم . والذين يعيشون بجوار هؤلاء يتمتعون بالمال والصحة  
والعلم محاصرون ، يعيشون بما يتوهمون تملكه فى زريبة خنازير ، ان  
طعامهم الشهير وملابسهم الفاخرة وسياراتهم الانيقة وبيوتهم الوثيرة  
لا تحميهم ، انهم يدفعون الثمن ، يقتل احساساتهم بالتمسك بالافكار  
القلدة والمشاعر الحيوانية والعواطف الشبابة المتبدلة .  
— ولكنهم لا يدركون ان احساسهم ميت ، ويتمتعون بمشاعرهم

وثرائهم ١٠

فصاح غاضبا :

— ليكن . لانه لو كان اعمى البصرة يدرك مقدار تعاسته الهائلة  
ووضاعة حياته ، لكان فعل شيئا كذلك الذى يقدم عليه الزاهد المتصوف .

او ذلك الذى قلعه تولستوى عندما واجه الفقر والجهل من حوله .  
 فمضى يتخلص من املاكه فزعا يريد ان يستنقذ نفسه .. ان الافراد  
 الاغنياء الذين يعيشون وسط غالبية من الفقراء قد يظنون انهم اقوى  
 الاقوياء واعظم العظماء . ولكن جهلهم مركب وانحطاطهم مركب . لانهم  
 لا يدركون حقيقة امرهم .. انهم عاجزون تماما عن الفرح الحقيقية .  
 لا يشعرون بطمأنينة أبدا . لا يرون جمالا صادقا أبدا . ان حشالة البشر  
 من الفقراء ، ليسوا احظ منهم الا عندما يصبحون اغنياء على شاكلتهم  
 .. ان المرضى عاجزين عن مقاومة افتك الامراض خبيثا ، تسوء حالهم  
 اكثر لو انهم تمتعوا بعضلات مفتولة قوية على حساب عقولهم الفارغة  
 .. انت تقول عن المريض انه مصاب وقد يشفى . اما صاحب  
 العضلات المفتولة والعقل الفارغ فلا وصف له الا انه غبي حمار .  
 الفقراء المظلومون ما زال عندهم امل ان يحققوا العدل ، وان يستنقذوا  
 انفسهم ، يكفي ان يرتفع راس واحد منهم فوق مستوى الهوة التى  
 سقط فيها ، ليفكر فى العدل ، ويحارب من اجله . اما الاغنياء الظالمون ،  
 فما من امل لديهم ، لقد ضاعت نفوسهم واحترقت .

هل استرسل مع كل هذه المواقف ؟ ما الذى ابنيه ؟ هل اريد  
 ان اقنع نفسى بانى افهم بعض ما يجب ان يفهمه الانسان عن الظلم  
 والعدل . ولكن ما الفائدة . ان المطلوب ليس الافكار . ان الانسكار  
 ليست كل شئ وقد لا تكون لها قيمة على الاطلاق بلا تصرف وعمل  
 عندما ترتفع رءوس المظلومين ولو بمقدار بوصة او اقل فوق حمأة  
 الوحل الفارقت فيه مواجهين من خلال تجارب لا حصر لها . مهمة  
 تحقيق عدالة ترتبط بواقعهم وتعتمد على ماحققة العقل الانسانى فى  
 هذه الدنيا من انجازات . عندئذ سوف تكون كلمات مثل شيوعية او  
 اشتراكية او عدالة اجتماعية . ليست مجرد كلمات او شعارات  
 للمتاجرة . لن تكون كما يتصورها زهدى الوانا من الكوسة والفاصوليا  
 والباذنجان فى طبخة تورلى . لن تكون مظاهر ولا اقنعة . لن تكون  
 شيئا يخاف الناس منه ، او يتباهى الناس به ، يتنكر البعض له  
 ويتاجر بشيئته او يتاجر بمدحه . ترى هل من اجل هذا كان  
 مصرع والد تو ؟ لا بد ان هذا المعنى الكبير ، هو الذى ساعده على ان  
 يموت متحديا رافع الراس .

« انتهت السودة »

بعد كتابة تلك الاوراق . علمت من جديد الى مقهى الشطرنج .



ولاحظت أن لعبى قد ساء الى درجة كبيرة ، فكنت أسهو ويشرد تفكيرى  
فى لاشئ . فارتكب أخطاء . والقى الهزيمة تلو الهزيمة . كنت  
عصبيا ، وكنت أشعر بأننى أنتظر شيئا مالا أعرف كنهه ، وقد تعودت  
من قبل على نوع آخر من الانتظار ، كان غالبا مايسبق شروعى فى كتابة  
رواية اذ أعانى من احساس مريع بالعدم ، بالخواء المطلق . كانى  
لا شئ ، صمت رهيب داخلى ومن حولى ، ودمدمة مكبوتة لا تريد  
أن تفصح عن طبيعتها تنتابنى بين وقت وآخر . كنت أسمى هذه  
الحالة ، مخاض الرواية ، ولكن انتظارى الان يختلف ، فانا خائف  
وعصبى ، ولا أدرى على وجه التحديد ، مصدر الخطر الذى يكاد  
يحدق بى . وزاد من مخاوفى ، أنى بعد فراغى من كتابة المسودة ،  
شعرت بالعجز عن كتابة أى عمل أدبى . هكذا قلت لنفسى ، وكانى  
علمت بنيا نقله اليها بلا تبرير أو تفسير ، متجاهلا أنى صاحب القرار  
فى كتابة ما أريد أن أكتبه . وخطر لى أن مرضى بالانفلونزا كان نتيجة  
خوف أرهقنى ، وجعلنى عرضة للسقوط فى المرض ، وخطر لى أن  
ترددى على مقهى الشطرنج ، هو أيضا خوف من مواجهة حقائق  
الحياة القاسية ، كما كشفها لى زهدى . وكما دونتها فى مسودتى ،  
وأحيانا كنت أهمس لنفسى ، هل انا هارب من الهول الذى يعدونه  
فى السجون للذين يتجرأون بالأفصاح عن مبدأ أو رأى . ثم شعرت  
ذات مرة ، وأنا جالس احتسى الينسون أرقب مباراة شطرنج ، أن  
ما أعانى منه . أفدح من تلك الضربات والركلات والهراوات التى قد  
تسقط على راسى وجسدى للحظات ، ثم أفيق منها بالموت . لم يعد  
الشطرنج ، ولا البريدج فى النادي ، ولا سهرات فى البار ، ولا أى  
شئ آخر ، يعيد الى حواسى مذاق الحياة . نعم أن هذا الانتظار الفاجع  
ليس انتظارا فنيا يسبق كتابة رواية . انه انتظار لموقف اتخذته من  
حياتى كلها . وأن كنت لا أدرى كيف ، ولا ماذا أختار . سحقا لتلك  
الأوراق التى كتبتها بمظنة انها ستساعدنى على الشفاء . انها كانت  
نموا لسرطان ، لفوضى فى نمو الأفكار ، لاختلال فى المشاعر يتضخم  
يوما بعد يوم ، ولا أدرى كيف أعالجه . ولا أين . حتى كان صباح  
ذلك اليوم .

كنت أعبر الميدان فى طريقى الى القهوة ، يوم آخر مثل بقية  
الايام ، عندما رأيته أمامى . تو . هاهو يسير هناك ، مندفعاً فى  
طريقه ، قادماً فى الاتجاه المضاد ، وخفق قلبى ، وتهلل وجهى ،

ووجهت اليه عيني ، في انتظار أن تلتقي العيون . كان يحمل ربطة كبيرة . يبدو أن داخلها كتب أو أوراقا . كان يقترب مني وأنا اقترب منه . دون أن ينظر في اتجاهي ، وأصبحت واثقا أنه سيعبرني دون أن ينتبه الى وجودي بجواره ، بل خشيت أن يراني فيكتفي بتحتي رأسه ، ويمضي في سبيله . . ماكنت لأرضي بأن يحدث هذا ، لاي سبب من الأسباب . وهتفت بأعلى صوتي أستوقفه :

- تو . . الى أين انت ذاهب ؟

واقبلت عليه بوحشة كبيرة ، كنت أريد أن أعانقه ، لولا أن وقفته وخطواته لم تسمح لي بالعناق . وسألته في حماس لم أعرفه منذ وقت طويل :

- الى أين ؟

قال :

- الى النادي . .

سألته :

- وما هذا الذي تحمله ؟

- قال دفاتر البريد . .

وأشار بيده في اتجاه أحد الشوارع الضيقة الى الميدان وقال :

- كنت هناك في المطبعة اسلمها . .

قلت على الفور :

- أنا أيضا ذاهب معك الى النادي . .

هيا أوصلك . .

نسبت في لحظة واحدة الشطرنج ، وكل شيء ، ولم أبال بالدهشة التي ارتسمت في عيني تو وهو يسألني مسترييا :

- هل انت ذاهب الى النادي حقا ؟

قلت بلهفة :

- طبعاً . .

قال في عجب :

- ولكنك تعيبت عنا لاسابيع طويلة . . أكثر من شهرين . .

قلت له وأنا صادق تماما فيما أقول :

- فعلاً . . ولكن النادي وحشني . .

كان كلامي ساذجا ، وتفسيرى لوقفى المفاجيء لا معنى له ، فالذي يسيطر على هو شعور قوى بالآ يقلت تو مني .

نظر الى نو في ارتباك ، وسار الى جانبي في طريقنا الى موقف  
السيارات ، وما كاد يرى سيارتي ، حتى ابتسم وقال :  
- انذكر يوم السباق ..  
قلت :  
- نعم اذكره ..  
واشرت له :  
- اركب .. فلن أسابقك هذه المرة ..  
وتحركت السيارة ببطء ..

## الفصل العاشر

وسع تو اوراق البريد عند قدميه ، وأطل من نافذة السيارة على يمينه ، معلنا بطريقة غير مباشرة ، أنه لا يتوقع أن يدور بيننا حديث ، وكنت بدوري مشغولا بهواجسى التى تحدثنى بأن هذا اللقاء بينى وبين تو كان لابد أن يتم ، فهو ليس لقاء صدفة ، ولو كان هذا اللقاء قد تأخر ، لاكتشفت أهميته ، ولسمعت إلى تدبيره ، وكنت واثقا أنى منطلق مع تو ، ليس فى توصيله الى النادي ، بل الى شيء أعمق وأخطر ، ولكنى لا أذكرى ماهو هذا الشيء ، ولا أستطيع أن أتنبأ به . ولما مضت فترة طويلة من الصمت ، وجدتنى أقول له متخلصا من هواجسى :

— ها أنت ترى انى اقود برزانة وتؤدة ..  
قال باسم :

— على الحقيقة .. كنت أسأل نفسى لماذا لا تسرع كعادتك ؟  
قلت فى مرح :

— حتى لا تذهب مرة أخرى الى قسم الشرطة .  
فاحمر وجهه وسكت ، ورفض أن يعلق بشيء .  
فقلت فى الحاح محتفظا بمرحى :

— هل تريد أن أهيب لك فرصة للاحتكاك بهم ؟

اجاب فى خجل :

— ولماذا المشاكل ؟

وعاد الى تشاغله بالنظر من النافذة على يمينه . ومضى بعض الوقت حتى اقتربنا من النادي ، فسارعت أسأله :

— هل أنت مرتاح لعملك فى النادي ؟

اجاب :

— آيذا ..

- ولماذا .. هل لديك مشاكل ؟

قال وفي صوته حزن :

- أبدا .

وأوقفت السيارة ، وهبطنا ، ومضى خلفى الى الباب ، وماكدنا نعبه ، حتى استأذن واتخذ طريقا آخر الى حجرات النادي ، وتركنى وحدى ، لا أدري ماذا افعل بالمقاعد والمناضد الخالية من الاعضاء . وكان من المستحيل ان اتراجع ، واغادر المكان ، فجلست اراقب بعض الخدم يقومون بأعمال النظافة ، ويثرثرون بأصوات عالية حادة ، كانوا قد صمتوا للحظات عند دخولى ، وبدت على وجوههم الدهشة ، ثم عادوا الى عملهم وثرثرتهم . هل انهضوافتش فى الحجرات باحثا عن تو ؟ .. واقول له : انى أريد ان أحدثك . ولكن فى أى أمر أحدثه ، وما الذى أريده منه على وجه التحديد ؟ .. ان من أصعب المواقف التى اواجهها ، تلك التى اتورط فيها من خلال انفعالات المشاعر . قد أكون سخيفا الى أقصى حد ، قد أكون ساذجا بله الى درجة لا تطاق . ومع ذلك فهواجسى تنبئنى أن تورطى مع تو ، إما كان نوع هذا التورط سوف يؤدي بى الى شيء هام ، وأنه لا معنى للتحفظ الاجتماعى امام هذه المشاعر الملحة التى تنتابنى . وقبل ان اقدم على أى تصرف ، دخل تو القاعة التى اجلس فيها ، ورأى ، وابتسمت له ، فhez رأسه ، ومضى يخاطب الخدم ، وأنا لا أحول عينى عنه ، ثم التفت الى ، ورأيتة قادما نحوى . وارتبكت . جاء يسألنى اذا ماكنت أريد فنجان قهوة . قلت له انى اكون اسعد مخلوق فى الدنيا لو حقق لى هذه الامنية ، لولا خجلى من انشغالهم بأعمال النظافة وان الوقت يبدو غير مناسب لتلبية مثل هذا الطلب . فصاح تو فى أحد الخدم وطلب منه اعداد القهوة . فهتفت به :

- وماذا تشرب انت ؟

ولم أترك له فرصة للاعتذار . وهكذا جلس الى جوارى فى انتظار قهوته السكر زيادة ، وقهوتى السادة . ودفعنى ارتباكى الى محاولة تبرير حضورى المبكر ، قلت له انى مهموم ولدى مشاكل فقال ببراءة مضحكة أنه لا يتصور أن رجلا مثلى لديه مشاكل من النوع الذى يثير الهموم . فقلت له برزانة اكثر اضحاکا أنه عندما تتقدم به السن سوف يكتشف أن هموم الكبار اشد بكثير من هموم الشباب . قال بسرعة وحسم :

- الا أنا ؟

قلت :

- الدنيا مازالت امامك ..

قال :

- ولكن ليست هذه حياة ..

قلت :

- هذا يتوقف عليك .. يجب ان تنتهى اولا من دراستك فى

الجامعة ..

قال وكأنه يتخلص من كلمات لا تعجبه :

- طبعاً .. طبعاً ..

انى انتظر انتظار الصائد الذى قد يجلس طوال النهار أو الليل ،  
فى انتظار سمكة تلتقط الطعم . فكنت أتعهد الذهاب الى النساذى  
مبكرا بين يوم وآخر . حتى أصبح ترددى فى ذلك الوقت أمرا لا يثير  
الدهشة ، وكان تو يرانى ، وقد يشرب معى فنجان قهوة ، ويشترى  
معى بأخبار الاعضاء ، وأنا أستمع اليه فى ملل وضيق . لانى عاجز  
عن توجيه الحديث الى ما أريده ، والادهى من ذلك انى لا أعرف ماهذا  
الذى أريده . حتى كان صباح اليوم الذى جاءنى فيه تو فى حالة  
نفسية مضطربة ، كانت فى عينيه نظرة غريبة ، وكان ممسكا فى يده  
دفتر البريد . وقد اكتشفت انه جاء بهذا الدفتر فى يده عن عمد ،  
وانه يريد ان يسجل عليه شرحا لما يريد ان يتحدث عنه .  
قال لى :

- أريد ان أستشيرك فى أمر خاص .. هل لديك مانع .. ارجو

الا أضايقك .

خفق قلبى ، وتوقد ذهنى ، وأصبحت قدرتى على الملاحظة  
أكثر حدة ، شعرت ان قوة ابصارى قد تضاعفت ، ولم أقو على الكلام  
من شدة الانفعال ، فهزرت رأسى مرعبا . ويبدو ان هذا الترحيب  
الصامت شجعه ، أكثر من أية كلمة انطق بها .

فقال ببعد وبمحاوله ناجحة تماما فى السيطرة على لسانه حتى

لا يتلعثم :

- لاحظت طبعاً انى اتلعثم فى الكلام .. وأن من يسمعى لا يفهم

كل ما أقوله .. لانى اذا ارتبكت تحدثت بسرعة غير عادية واختلطت

الكلمات فى فمى .. وهذا يضايق من يسمعى .

هزرت رأسى موافقا ، ولم انطق بكلمة .

- فعضى يقول وقد زاد رضا بصمتى :

— بالأمس كان هنا الدكتور الحمزاوي الطبيب النفسي .. كان يلعب البريدج .. وحدث أن وقفت اتحدث معه . فقال لي فجأة : أن هذه اللعنة قد نشأت ولاشك من صدمات شديدة وأنا صغير .  
فتحت أذني أكثر ، واحتفظت بوجه محايد . وسمعتة يقول :  
— فلي الحقيقة .. أنا حياتي صعبة ، وهذه اللعنة ان تعالج إلا بحل مشاكلي .

اقاطعه صارخا .. كيف يستطيع هو او مليون مثله حل مشكلة فقدان الاب والتيتم على هذا النحو الذي حدث له .. ومنعت نفسي بصعوبة من اطلاق الصرخة . كان فضولي اقوى من صرختي .. واذا به يضع دفتر البريدج على المنضدة امامنا . ويخرج قلم حبر جاف من جيب بنطلونه . كانت صفحة تسجيل النتائج مقسمة الى قسمين قسم مكتوب على رأسه « نحن » وقسم مكتوب على رأسه « هم » .. وكتب تو تحت « نحن » شارخا :

— هنا حياتي .. والنتيجة صفر ..

ثم كتب تحت « هم » :

— هنا الموت .. والنتيجة « جراند سلام » .

وهي اعلى نتيجة يصل اليها فريق في مباريات البريدج .

والتفت الى وهو يشطب على كلمة « حياتي » سائلا :

— لماذا أعيش ؟ .. الا اذا كنا نولد لنموت ..

وهنا بدا واضحا انه يريد أن يسمعني .

كانت نظراته تدعوني الى الكلام .

قلت :

— هذا سؤال صعب ياتو .

سألني في قلق :

— اليس لك اجابة مقنعة ؟

قلت :

— أنا لى رأي طيعا ..

فسألني في لهفة اشبه بالتحدي :

— ماهو ؟

قلت :

— كنت اتحدث ذات مرة مع الجنرال .. في هذا الموضوع ..

وبلعت ريقى .. وقد فوجئت بقوى مجهولة تكشف عن نفسها

فجأة ، قوى غريبة شرسة لا أدري من أين جاءت ، وماهى طبيعتها .  
تحاول أن تفرض نفسها على الحديث . وتريد منى أن أذكر اسم  
زهدي .. حتى لو استخدمت ذلك اللقب غير المباشر « الجنرال » .

واكملت ومخاوف تتجمع فى نفسى .. مخاوف من نفسى ..  
- « كنا نتحدث عن أبنه حسن .. الذى هاجر وترك كل شئ ..  
.. ان الجنرال عني كما تعرف ولديه حديقة تدر عليه دخلا سنويا  
محترما .. قلت له على ما اذكر : انى اعتقد ان الحياة واحدة ..  
كل البشر حياتهم واحدة ، ولهم روح واحدة .. ولكن لهم اجساد  
متعددة وأشكال مختلفة . هى نفوسهم التى تضم نصيبها من الحياة  
الكبيرة ..

ورفعت صوتى محاولا أن أشرح له :  
- ان الحياة تجرى فى اجسادنا كما يجرى الماء فى الاوانى  
المستطرفة .. أو كما تجرى المياه فى الدنيا .. مياه البحر فى  
الحيطات .. ومياه الامطار تصب فى كل مكان .. قد يختلف الاناء  
.. بحيرة أو ترعة أو بحرا أو نهرا .. وقد يختلف الطعم حلوا أو  
مالحا ، ولكنها نفس المياه .

وفجأة دفعتنى تلك القوى الغريبة فى داخلى الى أن أقول :  
- قد تكون أنت على صورة أبيك .. نفس الشكل مع تصوير  
بسيط .. ولكن حياتك هى نفس حياة والدك .. وهى أيضا ..

اضفت بصعوبة :  
- هى نفس حياة زهدي ..  
هذه المرة نطقت باسم زهدي سافرا .. كان تو يحدق فى وجهى  
صامتا ، وبدأ متشككا فى أهمية ما أقوله ، ولكنه فى نفس الوقت بدا  
وكأنه يريد أن يسمع المزيد . كان فى تلك اللحظة والقلم فى يده ، أشبه  
بمن يمتحننى . لا بمن يستشيرنى .

رددت من جديد :  
- ان حياتك هى على نحو ما حياة أبيك .  
وسكت وقد أرهقنى هذا الخضوع المطلق لتلك الاصوات التى  
تخرج منى رغما عني .  
ورأيت بهز رأسه ويقول :  
- لا أظن ..

قلت وقد فقدت تماما سيطرتى على نفسى :



— لقد كنت أعرفه ..  
نظر الى في غير فهم .. وكنت غير مصدق لنفسي ، فلما عرفت  
أباه يوما ما ، ولكن هانذا أوصل كلامي :  
— لقد عرفت الظروف التي عاش فيها ..  
وتهبّج صوتي مكملًا :  
— وأيضًا أعرف كيف مات .. ؛  
وهتفت منفعلاً :  
— كان رجلاً عظيماً ..

أوشك أن يقفز هارباً ، أو هكذا خيل إلي ، ولعلّي أنا الذي كنت  
أريد أن أهرب من نفسي . كانت رأسه تتلقت بسرعة عصبية في كل  
اتجاه ، لا بحثاً عن شيء ، ولا خوفاً من شيء .. ولكنه كان كالحاصر  
برؤى قاسية ..

وسمعته يقول وأنا أنظر بعيداً لا أريد أن أواجه عينيه :  
— وما هي عظمتي .. وقد تركني على هذه الحال ..  
قالها بسرعة ولعنة ، مع كلمات كثيرة لم أتبينها ..  
قلت :

— يكفي أنه مات من أجل مبدأ يؤمن بأنه يسعد البشر .  
قال وهو ينقر بالقلم بقوة على دفتر البريدج :  
— ومالي أنا وكلّ العالم .. هل تراني سعيداً ؟  
أجبت بحدة :

— أنت تتحدث بلغة الجنرال ..  
قال تو :

— عنده حق ..  
قلت ساخراً وأنا أواجهه متغلباً على مخاوتي :  
— لا تكن جاهلاً مثله ..  
قال :

— وما الذي فعله والذي بموته ؟  
قلت :

— ترك من بعده معنى .  
قاطعتني :

— أي معنى .. هل هناك شيء أكلته أو شربته ؟ ..  
قلت :

— على الأقل تعلمته ..

صاح :

— متى .. انا لم اتعلم منه شيئا على الاطلاق .. كل اوراقه اخذوها .. كل صورة .. لا توجد له صورة واحدة فى بيتنا . لا كبيرة ولا صغيرة .. لا شيء بقى .. كانوا يهاجمون البيت .. فيمزقون المراتب وينبشون القطن .. ويحطمون المقاعد . ويتحول بيتنا الى انقاض .. هل يرضى اب ان يعرض اولاده الى هذا ؟

قلت :

— هذا أهون مما يتعرضون له فى انسانيتهم اذا استسلموا ..

صاح :

— ما الذى تريده .. ان أموت مثله فى السجن ؟

قلت :

— لا .. ليس هذا ما أريده ..

فقاطعتى وهو يتذكر :

— لقد مررت على جميع دور الصحف والمجلات أطلب مجموعاتهم القديمة التى صدرت أيام موته .. كنت أريد أن أقرأ ما كتبوه عنه .. لم أجد شيئا على الاطلاق .. لم أصدق .. حتى انى جئنت ، ذهبت الى دار الكتب ، وأعدت طلب نفس الصحف والمجلات .. الأهرام ، الاخبار ، الجمهورية ، روزاليوسف ، آخر ساعة ، المصور .. كان تلك النسخ التى تحتفظ بها دار الكتب سيكون فيها ما أريد وطبعاً .. كانت هى هى .. ولم أجد شيئا .. حتى انى شتمت الموظف هناك .

قاطعته :

— مثل رجال الشرطة الذين تتشاجر معهم ..

قال فى انفعال شديد وبسرعة يصعب ملاحظتها :

— نعم .. انا لا أحتلمهم .. لن انسى هجماتهم علينا .. وكتبى الممزقة .. حتى حقيبة المدرسة سرقوها .. هل تصدق ؟ انهم كانوا يفتشون الملابس الداخلية لأمى . قمصان النوم والكيلوات .. هل تصدق .. فما المعنى الذى تقول انه تركه بموته لقد خرب بيتنا .

قلت :

— اكذ .. بموته ان فى الحياة اشياء تستحق ان نموت من

اجلها .

واختطفت دفتر البريد من أمامه واختطفت القلم من يده .. وقلت مشيراً الى ماكتب : هنا تكتب انت ان الحياة تساوى صفر ..

وأن الموت يساوى كل شيء .. وهذا خطأ .. الحياة تساوى كل شيء  
حتى لو دفعت الموت ثمنها لها .. لان الموت ليس عقبة امام الحياة .  
قال وكأنه تلميذ يناقش تلميذا آخر فى مسألة حساب .  
— معنى هذا أن الحياة هى الموت ..

قلت :

— نعم .. بمعنى أنك كلما شعرت بالحياة أكثر ، كان تعرضك  
للموت أكثر . ذروة الحياة ، هى الحدود الفاصلة بينها وبين الموت  
.. وكما قلت لك — الذى يموت هو بعض أجسادنا .. هو بعض  
أشكالنا .. بعض نفوسنا .. أما الحياة فباقية فى ملايين الملايين من  
البشر الاحياء الان . أو الذين سيولدون غدا والى ماشاء الله .

سكت برهة ثم واجهنى بسؤال بسيط حاسم :

— وماذا أفعل ؟

هتفت :

— حاول أن تفهم ..

قال :

— أو انتحر ..

قلت فى هدوء متعمد :

— هذا أمر لا قيمة له ..

وهنا هجم على تو بعض الاعضاء ، ينادونه أن يأتى لهم بأوراق  
اللعب ، فذهب اليهم ، وانتظرته ، ولكنى فوجئت به يجلس ويشاركهم  
لعب البريدج .

كنت مرهقا .. ولم أعد أحتمل المكان . وكنت قد اعتسدت  
الانصراف بمجرد حضور زبائن الصباح . وكانت صلتى قد انقطعت  
تماما بمعارفى فى النادى الذين يأتون عادة فى المساء . حتى زهدى  
كنت لا اسأل عنه ، ولا أهتم بأخباره . وكان تو يقول لى أحيانا أنه  
سأل عنى ، وأنه دهش عندما علم أنى لا احضر الى النادى الا فى  
الصباح الباكر . واليفنى أكثر من مرة أن زهدى يطلب أن يرانى .  
والان أشعر بأن تهربى منه ، كان بسبب تلك القوى التى تنشط فى  
عقلى ولا أستطيع أن أسيطر عليها .. انها تقاوم بخطة مدبرة ، أن  
ألتقى بزهدى . وهى التى دفعتنى الى اتهامه بالخجل أمام تو .. ومن  
يدرى فقد تطلب منى أشياء أخرى ، أكاد أشعر أنها ستدفعنى دفعا  
الى الإقلاع بين زهدى وتو . هل أنا شرير الى هذا الحد .. أكون  
قد جننت .

خرجت من النادي ، وسرت في الشوارع هالما .. انفرج على  
الفتريات فلا ارى غير زهدى وتو ووالده المقتول .. وجلست في  
محل حلوى بشارع صلاح سالم ، واكلت قطعتين من الجاتوه بشهية  
وخطر لى أن اذهب الى مقهى الشطرنج ، ولكنى لم أجِد الفكرة  
مستساغة ، وفضلت أن اقضى الوقت في مراقبة زبائن المكان ، أغلبهم  
من العشاق الذين يجمعهم عشق برىء ، خطيبة تضع يدها على  
المائدة لتلامسها يد خطيبها ، والنظرات بينهما حاملة ولكنها مرهفة ،  
وعلى الموائد الاخرى بنات السوق . لعلهن تحت امرأة منيرة ييجو ،  
يتفاهمن مع الزبائن والجرسونات ، وينظرن حولهن ، وكأن المحل  
هو بيتهن الخاص . وشربت القهوة باللبن ، وشربت كازوزة ، وأخيرا  
قمت ، أتسكع من جديد ، حتى وقفت امام باب سينما من دور  
الدرجة الثانية أو الثالثة ، تعرض فيلما من أفلام الكرايه . قتل  
ووحشية ودماء .. وانتابتنى رغبة ملحة أن أدخل الفيلم فى حفلة  
بعد الظهر . وجلست فى الظلام بين شباب أغلبهم من عمال الجراجات  
والميناء ، اشاهد بالالوان الاجساد تمزق بضربات اليد ، والعيون  
تفقا بالاصابع التى تخترقها ، والدماء تنبثق من الافواه ، والصيحات  
الوحشية تزار بين القتلة والمتصارعين . وخرجت وقد ذهب النهار ،  
وجاء الليل ومعه أضواء الكهرباء ، كان ارهاقى يدفعنى الى العودة  
الى البيت ، واكتشفت أنى نسيت أين تركت سيارتى ، فذهبت  
ابحث عنها حائرا ، حتى وجدتها كما تركتها فى الصباح بالقرب من  
النادى ، ووقفت برهة مترددا ، افكر فى الصعود الى النادى ، أو  
فى الحقيقة الصعود الى « تو » .. ولكن ما الذى أريده منه بالضبط  
.. وهنا سمعت تلك الهواجس المخيفة تدق بعنف فى أعماقى معلنة  
فى سفور عن هدفها ، أنت تريد أن تعلم تو من الذى قتل والده ؟ ..  
أنت تريد من تو أن ينتقم لابيهِ ، أنت تريد من تو أن يقتل اللواء  
زهدى .

ان أى واحد منا يكون عرضة لاغرب وابشع الهواجس ، والطفل  
الذى يغار من ابيه قد يفكر فى قتله كما يقول فرويد ، ولكنه  
لا يفعلها .. والولد قد تنتابه خواطر جنسية نحو أمه .. ولكنه  
ردع نفسه ، ان أى شيء ، أى خاطر من أى نوع ، قد يخطر بالبال ،  
وقد يشغل العقل ، الزوجة الشريفة قد تفكر فى الخيانة . للحظة ،  
ثم تنتبه الى فساد خاطر وتطرده . كل خاطر محتمل ، ولكن ليس  
كل تصرف بمعقول .

كنت أقود سيارتي هاديا من النادى ، ومن تو ، ومن خواطر الكراتيه المفزعة ، والتي لا تليق برجل فى مثل عمرى ، ان لم يكن فى مثل ثعافتى . فما فائدة ان يقتل تو ، اللواء زهدى لينتقم لابيهِ ، هذا معنى يدائى ساذج لن يؤدى الا الى ضياع تو ، ولن يكون ضياعه بسبب مبدا أو من أجل عقيدة ، ولن يترك بضياعه معنى يستفيد منه البشر ، سيكون ضياعا فى جريمة قتل .. حماقة وشر ولا اكثر من هذا .. ان قتل اللواء زهدى لن يصلح البلد ، ولن يحقق العدالة .. ان الامر يحتاج الى عمل ضخم ، يقوم به آلاف ثم ملايين الناس ممن يؤمنون به .. اذن ما الذى جلب هذه الخواطر السوداء الى راسى ا يكون العجز الذى أشعر به عن قدرتى فى مقاومة الظلم وأعمال القسوة والارهاب فتنتابنى هذه الافكار الصيبانية عن القتل والاضتيال ..

كنت فى سربرى اقلب ، ولا اثر لقرص الفاليوم الذى ابتلعتهُ ، وابتلعت قرصا ثانيا وثالثا ، ولا ادرى متى زارنى النوم .

حاولت ان اعود الى مقهى الشطرنج ، وبذات جهدا خارقا ، لاجلس الساعات الطوال اراقب اللاعبين ، أو أشارك فى اللعب ، وقد ابتعدت عن اللعب الجاد ، ورحبت بمجموعة من المسنين ، يلعبون الشطرنج لقتل وقت الفراغ ، مستعدين بعض حيويتهم المفقودة ، بكلمات التحدى والسخرية والشماتة أو حتى الشجار الصاخب مع الخصم الذى يلعبونه .. ولكن عذابى كان كبيرا ، كنت ادرك انى اعتقل نفسى فى ذلك المقهى .. وكان لابد ان تأتى اللحظة التى اتور فيها على هذا الاعتقال ، فأذهب الى النادى واخترت ان يكون الوقت مساء حتى لا ألتقى وحدى بتو .

وما كدت ادخل ، حتى علمت ان اللواء زهدى قد أصابته ذبحة صدرية تهدد حياته بالخطر . وفى نفس الليلة ، علمت ان تو ، يقضى الليل فى بيت زهدى .. بينما تلأزمه فى الصباح ممرضات يشرفن على تمريره .

كان تو ، يلعب البريدج ، ولم يتبادل معى كلمة واحدة ، حتى جاءت الساعة الثامنة والنصف ، فنهض ، واتجه الينا ، ولما رآنى قال لى باسم :

— انا ابغى زهدى بك كل ليلة سؤالك عنه .

واستأذن منصرفا ، وما كاد يبتعد ، حتى قفزت من مقعدي ، وأسرعت الحق به .

استوقفته قائلا :  
 - ترى ماهو الميعاد المناسب لزيارته ؟  
 قال :  
 - الزيارة ممنوعة ..  
 سألته :  
 - هل حالته خطيرة ؟  
 قال :  
 - الحالة احسن .. كل يوم يمر يبعث بنا عن الخطر ..  
 أخرجت من جيبى ورقة كتبت فيها رقم تليفون منزلى . وأعطيته  
 له طالبا منه ان يتصل بى فى اية لحظة من الليل اذا احتاج الى .  
 واذا بى أسأله :  
 - هل أنت حزين من أجله ؟  
 قال فى براءة :  
 - طبعاً ..  
 قلت كالمجنون وأنا انظاھر بالحكمة :  
 - لا تفسد شبابك بالحزن على العجائز أمثالى .. اعلم ياتو ..  
 ان اللواء زهدى هو الذى قتل والدك فى السجن .  
 اترك برأسه وقال هامسا :  
 - أعرف هذا .  
 نظرت اليه احاول أن أفهم ، ونظر الى محاولا أن يفهم ، ولم  
 يفصح لى ، ولم أفصح له ، واستدار هابطا الدرج فى طريقه الى بيت  
 اثواء زهدى .  
 قلت لنفسى : انه سوف يقتله ، ثم قلت : لو فعلها ساكون انا  
 قاتله ..

## الفصل الأخير

كانت جنازة اللواء زهدى بسيطة وقورة ، وهم فى الاسكندرية لا يشيعون الجنازات بالسر وراء النعوش ، يكتفون بالصلاة على الجثة فى المسجد بعد ان يستمع المعزون الى بعض آيات الذكر الحكيم ، ثم تخرج الجثة بعد الصلاة الى عربة تنتظرها خارج ساحة المسجد ، ووقف اهل زهدى واغلبهم جاء بملابسه الريفية ليصافحهم المعزون وينصرفوا ، لم يكن هناك من يبكى بين الرجال ، ولعل حسن لو كان موجودا لبكى ، وحضر اغلب اعضاء النادى هذا الوداع الاخير ، وبعدها انصرفوا الى النادى ، واوقفوا لعب البريدج تلك الليلة حدادا على روح المرحوم . ولكن البار استمر فى تقديم المشروبات الروحية . وكان اهم مادار فى حديث الاعضاء فى السهرة ، هو الاستفسار عن حسن ، ومن ارسل له يبلغه ، وهل يجدر بالاعضاء ان يرسلوا له برقيات التعزية ، وماهو عنوانه فى كندا ، ام الافضل الانتظار لانه لايد قادم ليباشر امور ميراثه .

وماذا يكون مصير الارض لو لم يحضر حسن . وكنت معهم استمع بشغف الى كل التفاصيل ، اما تو فكان قد تركنا . ولم يقل الى اين هو ذاهب ، وقد يكون قد ذهب الى منيرة بيجو ، فالمسكنة كانت شديدة الحزن على وفاة زهدى ، وكان تأثرها واضحا ، وهى التى شهدت اول نوبة المرض ، ولعلها اقامت بدورها ليلة حداد فامتنعت عن العمل تلك الليلة مثلما منعوا البريدج فى النادى . وكان هناك امر مثير آخر ، فبين الذى جاءوا الى النادى بعد الجنازة . السفير شكرى منصور ، وكان يدخل النادى لاول مرة منذ ان قاطعه بعد حادث اصطدامه بابنه يسرى ، وقد انهالت عليه عبارات الترحيب من كل جانب ، وكان حادث حضوره ، منافسا قويا لحادث تشييع جنازة الجنرال . وسالونى اكثر من مرة ، كيف مات زهدى ، فكنت اجيب واجما وانا احرك يدى فى الهواء :  
— هذا امر الله .

كانوا يريدون منى التفاصيل ، ولكنى ضمنت بها ، وكل ماعرفوه منى ، هو انى استخدمت سيارتى السريعة فى احضار الطبيب ، ولكنه وصل بعد فوات الاوان ، فردد الواحد بعد الاخر ، ما الذى يستطيع ان يفعله الطبيب عندما تحين الساعة . وقال شكرى منصور متحسرا ، ان زهدى أخطأ عندما فاجأته النوبة ، كان راكبا سيارته ، وكان قد وصل بالكاد الى باب عمارته ، ولو كان عاقلا ، لظل مكانه حتى يكتشف احد أمره . وكان لابد ان يحدث هذا بسرعة ولكنه بذل جهدا يستحيل ان يتحملة الكلب المريض ، وهبط من السيارة وسار حتى الباب ، وصعد بضع درجات ، وكل درجة يصعدها كانت تذيب قلبه ، ان اطار الكاوتش عندما يفرغ من الهواء وتسير عليه ولو بضعة أمتار يتمزق ولا يصلح بعد ذلك للاستعمال ، فما بالك بالقلب ، انه من لحم لا من مطاط ، وكل نبضة اقوى من اللازم كانت تهتك صماماته وتلفه ، ومع ذلك واصل زهدى السير حتى باب منيرة ييجو ودق الجرس ولما فتحت له ، وجدته يلهث ووجهه أزرق ، خافت . وسندته حتى لا يقع ، وبصيح شكرى . . ان الطبيب يأمرك لو جاءتك الذبحة وانت فى الطريق ان تجلس مكانك على الرصيف لا تخطو خطوة واحدة ، ومنيرة لا تفهم فى الطب ، ولكنها عرفت ان الرجل فى حالة خطيرة . قالت ان يده كانت مثلجة . . العرق الغزير يتصبب من جبينه ، وكان يتنفس بصعوبة . وكان يمسك بيدها ويعتصرها بشدة توجعها ، كانت قبضته قوية بشكل غريب ، كادت تحطم يد منيرة ، ولم تكن تعلم ان بعض ماسعريه ، هي آلام الانقباض التى تعتصر قلب زهدى ، وطلبت منه ان يدخل ويستريح ، ولكنه رفض ، ولعله كان يعرف أنه سيموت ، وخشى ان يموت فى بيته ، كانوا سيقولون ان جنازته خرجت من بيت منيرة ييجو . ولكن من الذى يهتم بهذه الامور امام الموت ، كان يجب ان يدخل ويرقد فوراً ولا يتحرك أبداً من مكانه حتى تنتهى الازمة مهما طالت الاسابيع ، ثلاثة اسابيع على الاقل كان يجب ان يقضيها بلا حراك ، ولكنه استجمع قواه وطلب منها ان تساعد فى الصعود الى مسكنه . هل هذا معقول باناس ، ان موافقة منيرة على طلبه واستسلامها له هو الذى كان فيه القضاء الاخير عليه .

ويستكرى لحظة يسترد فيها انفاسه ، ثم يقول :  
 — أنا قلت لمنيرة انها هى السبب . . قالت لى انها كانت لا تعرف . . وهذه هى اول مرة تواجه فيها مثل هذه الحالة ، ولكن جهلها



وعناد زهدى هما اللذان قتلاه .

وقال سعبان وهو يتلفت حوله :

- من حسن حظنا أن رعوف لم يسمع هذا الكلام .

كان رعوف قد انصرف الى بيته بعد الجنازة مباشرة وكان منهارا ، وهو الذى اصيب بالدبحة مرتين وكان فى الايام السابقة على الوفاة يطمئن الاعضاء ، ويؤكد لهم أن زهدى سوف يشفى ، كان يقولها فى يقين ليطمئن نفسه ، وكان يتهم كل الحاضرين بالجهل فى موضوع امراض القلب ، ويقول أنهم يخلطون بين الدبحة ، واللفظ وتلف الصمامات ، وتضخم الاورطى ، وكان يقرأ المجلات الطبية التى تتناول هذه الموضوعات ، ويعرف كل الادوية ، وتأثيرها ، ومدى فاعليتها ، فلم يجرؤ احد على مناقشته ، ثم تأثروا بكلامه ، فاستسلموا لوهم أن زهدى سوف يشفى وسيعود اليهم ليحى جلساته المرححة البديئة .

وكانوا يسألون تو عن اخبار زهدى ، وكان يطمئنهم ، وقبل وفاته بيومين ، قال لهم : أنهم يستطيعون زيارته ، فجمعوا انفسهم ، وذهبوا لزيارته ، ولم اذهب معهم لانى لم اعلم بنى السماح بالزيارة ، وقالوا ان زهدى ، كان ضعيفا ، شاحبا ، ولكنه كان مريحا ، ولم يسلموا من طول لسانه ، وطلب من منيرة أن تصعد وتنضم اليهم ، رقصوا ساعتين لم يكفوا فيهما عن الضحك . . حتى صاح فيهم زهدى :

- انتو باولاد الكلب عاوزين تموتوني من الضحك .

فصاحوا :

- عمر الشقى بقى .

فقال متحديا ، انه لن يموت . وانه بمجرد أن يشفى سوف يتزوج ، وذكر ابنه حسن ، وقال انه يفكر فى أن يرسل للولد برقية يطلب منه الحضور .

واختلفوا فى وصف زهدى وهو يتحدث عن ابنه . . قال شكرى انه كان متأثرا يوشك أن يبكى ، وقال رعوف على ، انه كان ساخرا يشتم ابنه ، وتحدثوا عن المرضة التى كانت تقضى ساعات النهار مع زهدى ، وتساءل سعبان فى خبث ، اذا ماكان زهدى مات ، لانه حاول مع المرضة ، واعترفوا بأنها بنت سمراء مسممة ، وان الموت على يديها او فى احضانها هو الذ انواع الموت ، وذكروا أن رعوف سال

تو .. اذا ماكانت تلك الممرضة حقيقية ، أم هي ممرضة مزيفة من بنات منيرة بيجو ، واكد له تو انها ممرضة فى مستشفى المواساة . فاطمانوا تماما الى أن زهدى سوف يشفى حتى فاجاهم الخبر صباح يوم الجنائزة . وعرف بعضهم من النادى ، فاتصلوا بالآخرين ، وكان الازهرام لم ينشر النعى . ونشره فى اليوم التالى لتشيع الجنائزة ، لان الوفاة حدثت حوالى الرابعة صباحا ، او قبل ذلك بدقائق . فعندما دخلت على زهدى مع الطبيب كانت الرابعة والرربع تقريبا وفحصه واستمع الى نبضات قلبه بالسماعة واذنه ، وشك عينه ورفع ساعديه وخفضهما وجس أصابعه ويطن بقدميه .. قال انه مات منذ حوالى ربع ساعة ، وكان تو واقفا ، فجعل يخط بكفه على فخذه الايمن خبطات متتالية شديدة ، وكانت أسنانه تعض على شفتيه ، اما أنا فقد خيل الى انى فى كابوس ، كان جسد زهدى راقدا على السرير فى بيجاما بنفسجية وازرار حمراء ، وكان يبدو أصفر من المعتاد ، ورأسه مرتفع قليلا ، وعيناه مغمضتان ، وبشرته تميل الى السواد ، والى جانبه كومودينو عليه كميات لا حصر لها من الادوية .. وكان جو الحجرة خائفا رغم أننا كنّا فى فبراير والبرد قارس فى الخارج .

وقال لى الطبيب :

— آسف .

وبدا عليه الضيق ، فقد كان متشككا فى جدوى حضوره فى مثل هذا الوقت المتأخر او المبكر . وخرج الطبيب فتبعه تو ، ولما رأتى أبادر بالخروج معهما سالتى فى دهشة :

— اتركه ؟

قلت :

— وما فائدة البقاء ..

قال :

— لا ادرى كيف اتصرف .. سأهبط واوقف الست منيرة .

قلت له وأنا أفكر فى عدم قدرتى على البقاء وحدى مع الجثة :

— اوقلها أنا ..

سالتى تو :

— اترقبها ؟

اجبت :

— لا ..

قال :

— ساهبط انا ..

ثم قال محتدا :

— ألم تقل له منذ ساعة انك تريد البقاء معه .

واصابني الشلل . كان تو كمن يقرأ مافى داخلى ، يعرف خفايا واسرار كل الذى جرى فى اعماقى ، وقبل أن افيق كان قد خرج مع الطبيب ، واغلق على الباب .

لم أجرؤ على العودة الى الحجرة التى يرقد فيها زهدى ميتا ، وذهبت الى نفس المقعد الذى كنت اجلس عليه وأنا استمع الى حكاياته التى يروها ، وقبل أن اجلس عدلت عن رايى ، ولذبت الى النافذة وفتحتها ، اطل على مدينة الملاهى بمراجيحها والعابها ، ولكن لفحة برد قوية جعلتنى اسارع باغلاق النافذة .. وجلست استريح .

منذ ساعة واحدة كنت هنا فى نفس المكان ، وكان زهدى مازال حيا . والان انتهى كل شيء ، وبقي أن استريح ، لم اكن حزينا لوته ، وبدا لى أن كل ما يحدث حولى ليس حقيقيا ، وأنه خيال يدور فى عقلى ، خيال صياني مريض ، ولكن الجثة الراقدة فى الغرفة المجاورة كانت تدحض اية محاولة للهروب من الواقع ، ان ذلك الجسد الميت هو الشاهد الحى الذى يواجهنى رغم أنى لا اراه . واجلس وبننى وبينه جدار . وتبينت فى تلك اللحظة ، انى عندما عدت من النافذة جلست على المقعد الذى كان زهدى يشغله وهو يروى لى حكاياته . وكدت اقوم . ولكنى شعرت بثقل ، وواصلت جلوسى ، وتشاءبت فى انتظار قدوم تو ومنيرة . لم اكن خائفا ، وكنت اقرب الى البلادة .. ورغم شدة الاحداث ، كنت بعيدا تماما عن الانفعال ، بل مسترخيا كان شيئا لم يحدث ، او كانى احلم وانا نائم فى سريرى ونم ..

كان التليفون قد دق فى بيتى ، وكنت جالسا اقرا . فمن عادتى ان اوصل السهر فى القراءة او الكتابة او مراجعة ادوار الشطرنج او الاستماع الى الموسيقى الكلاسيك حتى الرابعة او الخامسة صباحا .

لقد اكتسبت عادة السهر من عشرات السنوات التى قضيتها فى اعمال صحفية ، والان وقد تفرغت للكتابة لازمتنى هذه العادة ، واصبحت جزءا من روتين حياتى ، وعندما سمعت جرس التليفون بدق كانت الساعة حوالى الثالثة ، لم اتردد للحظة واجهه فى الجرم

بأن تو هو الذى يطلبنى . رغم أنه لم يحدثنى أبداً من قبل ، ولم أعود أن أتبادل المحادثات التليفونية مع أعضاء النادي ، صلتى بهم لا تعدو اللقاء فى النادي ثم انساهم ونسوتنى ، ولم يحاول زهدى أن يطلبنى فى التليفون ، ولو كان حاول لوجد صعوبة كبيرة فى الحصول على رقم تليفونى فقد احتفظ به سرياً ولم أسمح بتسجيله فى دفتر التليفونات ، وأنا أعرف منه الحذر ، كان يقول لى ، أن الذى عرفه أيام عمله فى الشرطة ، يجعله يشك فى الحديث ولو همسا فى أى مكان عام ، ويشك فى أى حديث فى التليفون ، كان يؤكد لى أنه لا يستخدم التليفون إلا عند الضرورة ولا يثرثر بأى كلام لا لزوم له ، وأن هذه عادة اكتسبها من عمله ، مثلما اكتسبت عادة السهر من عملى .

سمعت صوت تو ملهوفاً :

— لا مؤاخدة يا أستاذ .. زهدى بكّ تعبان جداً .

صحت :

— ياخبر .. اتصلت بدكتور .

قال :

— حاولت ولكنه لا يجيب .. فكرت فى أن عربتك سريعة ، وتستطيع أن تمر عليه اختصاراً للوقت ، وتحضره .

قلت :

— سأفعل فوراً ..

وأعطانى العنوان ، وكتبته ثم قرأته عليه ، كان الطبيب يسكن فى شارع الفراغة ، وقد ردت أنى فى أقل من نصف ساعة سأكون مع الطبيب عند زهدى . ووضعت السماعة ، وانطلقت ارتدى ملابس الخروج ، أى ملابس تصادفنى . معتمداً على الباطل الذى يستر كل شيء ، وهبطت الى الجراج أسفل العمارة . ومن حسن حظى أن سيارتى كانت فى المقدمة ، واحتاج الأمر الى زحزحة سيارتين من مكانهما ، ولم انتظر السائس الذى استيقظ بفرك عينيه وقد وجدنى أقوم بالمهمة غير مكرث بوجوده . وانطلقت بالسيارة بأقصى سرعة حتى وصلت الى شارع الفراغة . ودسست يدى فى جيبى لأخرج الورقة التى دونت فيها العنوان فلم أجدها ، وارتبكت ، أوقفت السيارة وقششت كالمجنون فى كل جيب ، فلم أعثر عليها ، ولم أستطع التفكير ، كل ما فعلته ، هو أن انطلقت بالسيارة الى بيت زهدى .

صباح تو :

— ابن الطبيب ؟

قلت لاهثا :

— العنوان .. الورقة ضاعت ..

قال وهو يجرى الى حجرة زهدى :

— سأحضره لك .

وتبعته الى الحجرة ، كان زهدى راقدًا وقد رفع رأسه فوق  
مخدات عالية ، وكان فى وجهه ألم ، وفى عينيه شبه ذهول ، ولكنه  
ماكاد يرانى حتى عرفنى فقد تحرك سواد عينيه وأبتسم ابتسامة  
شاحبة .

قلت فى لهفة :

— سلامتك .. سيأتى الطبيب فوراً .

وفجأة سيطرت على تلك الهواجس الغريبة التى كانت تأمرنى  
فأطيع . وإذا بى أقول لزهدى وأنا أنظر فى عينيه :

— ابقى أنا معك يا زهدى .. ويذهب تو الى الطبيب .

لابد أن نظراتى كانت تحمل اليه معنى كامناً فى نفسى ، إذ كان  
يحقق فى عينى ، وفجأة ، لمحت شهاب القلق يلعب فى عينيه ، ونظراته  
تضطرب ، بينما صاح تو :

— كيف أذهب أنا ؟

قلت له وأنا أمد يدي بمفاتيح السيارة :

— خذ السيارة ..

قال :

— لا أعرف كيف أقودها ، سرعاتها خاصة ، وليست لى خبرة  
بها ..

وهنا حرك زهدى يده متمتما ، ولم أسمع ، ولكن تو سمعه ،  
وإذا به يصيح :

— لا يا زهدى بك .. هو الذى يذهب ، سأبقى أنا .

كان تو حاسماً ، ورأيت الخوف يزداد فى عينى زهدى ، وأصابه  
المرتعة فى يده الممتدة نحوى تكاد تدعونى بل تتوسل الى البقاء ،  
ولكنى لم ألتفت اليه .. وصحت :

— لا يجب أن نتعطل أكثر من هذا .

وعدت الى سيارتى ، وذهبت الى بيت الطبيب ، وعندما عدنا ،  
كان زهدى قد فارق الحياة .

فتح الباب ، كان مع تو مفتاح الشقة ، وقال ان منيرة فى حالة

سيئة .. وانها شرعت فى اجراء بعض اتصالات تليفونية ، فى بيوت اقارب لزهدي تعرفهم ، وجلس تو فى مواجيتى ، ورفع عينيه ناظرا الى ، وقال لى بصوت غريب :

— انت الذى قتلته يا استاذ « قتلته بكلمتين » .

قلت فى استرخاء كامل :

— اجننت ياتو ..

قال :

— اتدرى ما الذى حدث ؟

قاطعته بلهجة اتهام :

— كان وحده معك ، وانت الذى اتصلت بى ..

قال تو غير مهتم بما اثيره من اعتراضات :

— منذ اللحظة التى قلت له انك تريد البقاء معه وذهاى ، انتابتها المخاوف منى ، اتدرى انه حاول النهوض من السرير ليلحق بك ، قام فعلا ، وكلما اقتربت منه ، دفعنى بشدة ، كان مدعورا ذعرا بشعا ، لم اعرفه فى انسان من قبل ، كانى عزرائيل ، ولولا ان ازمته شديدة ، لكان هجم على وحاول قتلى ليتخلص منى ، كالك قلت له انى سوف اقلته ..

صمت :

— مستحيل .. ماهذا التخريف ياتو ؟ !

قال فى تأكيد وحسم لايقبل المناقشة :

— أقسم لك ان هذا هو ماحدث .. لم يكثرث بالازمة ، ولا بما يعانيه من الآم ، ولم يكثرث بكلام الطبيب ، ونهض ، وهو يعلم انه يقضى على نفسه باى حركة .. وحاول ان يذهب الى باب الشقة ويخرج منها .. ولكنه ماكاد يقف على قدميه .. ويمد يده يدفعنى ، حتى انهيار ، وارقدته على السرير ، وكان ينظر الى فى فزع . ولم اجد مفرًا من الخروج من الحجرة ، وكلما اطلت عليه من الباب رأته ينظر فى اتجاهى متكمسا خائفا ، فاخفتى ، ثم اعود فاطل بحذر ، فيلمحنى ، وفى آخر مرة ، صرخ ، ثم شهق .. فصحت فيه من الخارج .. ان يطمئن ، وان الطبيب قادم بسرعة .. وظللت اتحدث ، ثم اطلت برأسى ، فلم اسمع له صوتا ، واقتربت منه ، فوجدته هامدا ، لا صوت له ، أو شخص أو شخص . كان متصلبا .. ومازالت فى عينيه نظرات الفزع ، انها مازالت فى عينيه ، ألم تلاحظها عندما فتح الطبيب جفونه ، رأيتها باقية كما هي ، لا اعرف كيف لم

بلاحظها الطبيب ، انها نظرات مخيفة لم احتملها فاعمضت جفونه ،  
وعلمت انه مات .

همست :

— هذا قريب ..

قال تو فى اصرار :

— انت السبب ..

همست :

— لا داعى للاستمرار فى هذا التخريف .

قال :

— لقد وضعتنى فى موقف لا يحتمل .

رفعت صوتى :

— أما زلت مصرا ؟

قال تو :

— انا واثق مما أقول .. ولكنى لا افهم لماذا ..

والتفت الى والقى بسؤال :

— اكنت تريد منى أن أقتله ؟

هتفت فرعا :

— مستحيل — وما فائدة مثل هذا التصرف الاحمق .

قال تو فجأة :

— على أية حال أعدك بأنى لن احدث أحدا فى هذا الموضوع .

حاولت أن أفتح فمى ، وأقول له .. لن يصدقك احد ، لو أتهمنى

فستدور الاتهامات عليك أنت ، لانك ستفضح نفسك ، وسيعلمون

انك ابن الرجل الذى مات على يد زهدى فى السجن .. حاولت أن

أخيفه ، أو أخدعه ، ولكنى لم أنبس بكلمة .. وبعد لحظات ضربت

بيدى على مسند المقعد ونهضت . وغادرت المكان دون أن أقول لتو

كلمة واحدة ، ولم يقل لى كلمة واحدة .

هل أنا قاتل زهدى .. هل هذا معقول .. لقد كان الرجل

يتوقع أن يدبر له تو شرا ، صارحنى بأنه يخشاه ، ألم يكن يخشاه ،

ألم يقل لى أنه تعلم من مهنته أن يتوقع كل الاحتمالات ولا يستبعد

أحدا منها ، ما أدرانى أن تو يكذب ، وأنه هو الذى انتهز الفرصة

وهجم على زهدى وهو يعانى فى أزمة ، وجعل يهزه ويخيفه حتى

قتله ، انها جريمة من الصعب اكتشافها ، سيقدر كل أطباء العالم

أن الرجل مات بقلبه المريض ، أن رسوم القلب التى أجروها له تؤكد

أن العطب موجود وشديد . وأنه قلب لا يصلح .. لقد كان تو ماكرًا بما فيه الكفاية ، ألم يحدثني في بداية لقائي به عن رغبته في أن يقول كش مات لخصومه . ومن هم خصومه المباشرون في هذه الحياة غير زهدى وشوكت ، أغلب ظني أن شوكت لو كان مازال حيا لابد أن يقابل تو في جنيف أو حيث يكون ليلقى على يديه انتقاما من نوع آخر فريدا في نوعه .. لا .. لن أسمح لتو أن يهزأ بي ، ويتهمني بارتكاب الجريمة التي ارتكبها هو . ولكن هل أنا واثق مما أقوله ، ليس من المحتمل أن زهدى هو الذي انهار ، أمام مخاوفه التي كان يستبعدا مرضاة لله . كان يتبنى تو ليرضى الله عن ابنه ، ويفتح أمامه السبل ولكنه وهو يواجه الموت لم يعد يعنيه إلا نفسه ، وأحس أن الله يتخلى عنه ، فخاف وهجمت عليه الوسوس كالشياطين الفتاكَة قُدمرته .. كان يحمل جرثومة هلاكه في نفسه ، وهى التي قتلتَه .

ومع ذلك ، فما زالت صحيحة تو .. « قتلتَه بكلمتين » تدوى في أذني ، لقد كانت قوى أكبر منى ، تكمن في أعماقي ، هى التي دفعتنى الى أن أعرض على زهدى البقاء معه ، وانظر اليه ، وهو في قمة ضعفه ، لأقول له انى خائف مما قد يتعرض له من بقاءه وحده مع تو .. بل لعلى قلت له بنظرائى وأنا لا أعى خطورة ما أقول .. ان سبب ما يعانى من نكسة ، هو تصرفات لتو ، لعله خلط في الادوية ، أو ارتكب شيئا ضارا به .. لقد حذرته ونبته الى مخاوفه في اللحظة التي لا يستطيع أن يدافع فيها عن نفسه ، فإنهار ومات أو انتحر .. ولكنى أعود وأسأل نفسى .. هل هذا معقول .. ألم يطلبنى تو بنفسه ما الذى دفعه الى مخاطبتى في التليفون .

عندما اختفى النعش في السيارة الكبيرة السوداء ، التي ستحمله الى مقره الاخير كان تو يقف بجواره ، كنت لم أره منذ تركته فى فجر اليوم .

نظر الى وقال :

— أنا آسف .. لا تزعل منى ..

فمددت يدي وربت على كتفه . ولا بد ان من راونى ظنوا انى أواسيه فى موت أبيه زهدى ، كان أصغر الموجودين . وكان يصلح لأن يبدو فى نظر عابرى الطريق الذين ينظرون إلينا فى فضول كابين المتوفى .

وهمست فى أذنه :



- كيف عرفت انه قاتل والدك ؟  
 قال هامسا بدوره :  
 - بعد التوبة الاولى .. اعترف لى .. وبكى ..  
 سألته :  
 - وماذا فعلت ؟  
 فلوح بيده ودموع قى عينيه .. وقال :  
 - بكيت ..  
 وانطلق مبتعدا .. يعبر الطريق فى اتجاه بيت زهدى القريب  
 ن المسجد .  
 وأختفى تو ، بعد الجنائز ، ولم يعد الى النادى ، وانقطعت أخباره  
 لم يحضر ليقبض مكافاته الشهرية .. ورايته اخيرا ، فى شوارع  
 سفية زغلول . وكنت على الرصيف الاخر .. فناديت عليه بأعلى  
 صوتى .. واكتفى بتحيتى من بعيد .. أشرت له أن يقف . وجاء  
 سوته معتدرا .. وهو يجرى .  
 - عندى موعد هام فى فندق فلسطين .

تمت



اشترك سنوي في

روايات



الانصار

●● ١٢ عددا في جمهورية مصر العربية لتسعة جنيهات  
ثلاثة عشر دولارا

●● ١٢ عددا في اتحادى البريد العربى والاريفى  
والباكستان عشرة دولارات او مايعادلها ( بالبريد  
الجوى )

●● ١٢ عددا في انحاء العالم - ٢٠ دولارا ( بالبريد الجوى )

- تسدد القيمة مقدما للحسم الاشتراكات مدار الهلال في ح م ع نقدا او بحوالة بريدية لغير حكومية  
وفي الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف اليها رسوم البريد المسجل على الايجل  
الموضحة اعلاه عند الطلب

قسمة الاشتراك

الاسم: \_\_\_\_\_

المهنة: \_\_\_\_\_

العنوان: \_\_\_\_\_

رقم الايداع : ٨٧/٨٢٧٧

الترقيم الدولى : ٨ - ٣٣٣ - ١١٨ - ISBN٩٧٧

روايات الهلال تقدم

## الشمس العارية

تأليف :  
إسحاق عظيموف

ترجمة :  
محمد جلال عباس

تصدر : ١٥ يناير ١٩٨٨

الكويت: السيد 'عبدالعال بسيوني زغلول

الصفحة - ص . ب رقم ٢١٨٢٣

13079 - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

اشترك  
في  
روايات  
الهلال

## هذه الرواية

« وعدت انظر في اتجاه ، تو ، وفي صدرى مشاعر مختلفة من الفضول والحذر ، وانا احاول ان اجد في مظهره ما ينبئني عن حقيقة مخبره ، وان كنت اعلم ان مثل هذه المحاولة ميؤوس منها ، وجعلت افكر في هذا الوضع الشاذ الذى يتعرض اليه ، تو ، ويقبله ، فهامو يبدو ، او يتظاهر ، وكأنه احد الاعضاء ، وهامو يختلط بالشباب الذين هم من طبقة اجتماعية اخرى غير طبقته ، ومع ذلك فالجميع يعرفون حقيقة وضعه .. وهو انه ليس منهم .. وانه ليس عضوا ، بل موظفا واجيرا عندهم .. هل مثل هذا الوضع الغريب يصلح لرجل مخابرات ؟ لا اظن ، ومع ذلك فالامر غير مفهوم تماما ، اذ لماذا يقبل ، تو ، هذا الوضع ، وهل هو مضطر اليه ، او هو يتعمد ان يكون كذلك لغرض في نفسه ، وخطر لى انى ربما اكون قد ظلمته بهذه الهواجس ، فقد يكون واحدا من ذلك الشباب الغريب الذى لا نستطيع ان نفهمه نحن ابناء الاجيال الماضية ، نعله واحد من تلك الطيور الغريبة التى تشق طريقها فى الحياة بوسائلها الخاصة المبتكرة التى لاتخطر على بال (امثالنا) .. (اتكون الحياة قد دفعت به الى هذا المكان كمحطة يستريح فيها بعض الوقت ، قبل ان يطير الى مكان اخر يحط فيه . حقا ان هذا النادى اشبه بالمحطة ، بعض من فيه كهول ينتظرون القطار المسافر الى الحياة الاخرى ، وبعض من فيه شباب يتسكع فى انتظار قطار مسافر الى فرص اوسع فى الحياة . على اية حال ، قررت بينى وبين نفسى ان احذر من تو ، وان اتعامل معه بحرص اذا شأعت الظروف ان نلتقى ولابد ان هذه الظروف سوف تنهى يوما ما .